غزّة: الحربُ اليهوديّةُ الأخيرة؟

نورمن فنكلستين (خاص بـ الآداب)
ترجمة: سماح إدريس

بَرّرتْ إسرائيلُ مجزرةَ غزّة، المسمّاةَ «الحديد المصبوب» (٢٧/١٢/٢٠٠٨ ـ ١٨/١/٢٠٠٩)، بأنّها دفاعٌ عن النفس في مواجهة صواريخ حماس.[١] إلاّ أنّ هذا التبرير لا يَصْمد أمام أدنى تمحيص: فلو أرادت إسرائيل تجنُّب تلك الصواريخ لما خَرَقتْ وقفَ إطلاق النار مع حماس في حزيران (يونيو) ٢٠٠٨؛ بل لقد كان بمقدور إسرائيل التوصُّل إلى تسوية ديبلوماسيّة مع ممثّلي الشعب الفلسطينيّ (بمن فيهم حماس). وتلكم أمور سأعود إليها عمّا قريب، لكنْ من المفيد بدءاً وضعُ التبرير الإسرائيليّ أعلاه في إطار أوسع: إطار سجلّ إسرائيل في انتهاك حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة قبيْل المجزرة.

---

١ ـ Mouin Rabbani, "The Birth Pangs of a New Palestine," **Middle East Report Online** (7 January 2009; http://tinyurl.com/a2bu6l).

يشير تقريرُ «بتسالم» لعام ٢٠٠٨ إلى أنّ قوات الأمن الإسرائيليّة قتلتْ، بين ٢٠٠٨/١/١ و٢٠٠٨/١٢/٢٦، ٤٥٥ فلسطينيّاً، بينهم ١٧٥ على الأقلّ لم يكونوا طرفًا في أعمال العداء، في حين قتلت المجموعاتُ الفلسطينيّةُ المسلّحة ٣١ إسرائيليّاً، من بينهم ٢١ مدنيّاً. إذنْ، عشيّةَ ما يسمّى «حرب الدفاع الإسرائيليّة عن النفس» بلغتْ نسبةُ مجمل القتلى الفلسطينيين إلى مجمل القتلى الإسرائيليين حوالى ١٥ إلى واحد، ونسبةُ غير المقاتلين الفلسطينيين إلى غير المقاتلين الإسرائيليين ٨ إلى واحد. في غزّة وحدها قتلتْ إسرائيل في تلك الفترة ١٥٨ مدنيّاً فلسطينيّاً، في حين قُتل ٧ مدنيين إسرائيليين جرّاء الصواريخ الفلسطينيّة المنطلقة من غزّة؛ وهو ما يعني أنّ نسبةَ أولئك لهؤلاء هي ٢٢ إلى واحد. وكانت إسرائيل قد احتجّت بشدّة لأنّ حماس أَسَرَتْ جنديّاً إسرائيليّاً في حزيران ٢٠٠٦، لكنّها تواصل سجنَ أكثر من ١٠ آلاف فلسطينيّ، من بينهم ٥٤٨ في «الاعتقال الإداريّ» بلا تهم أو محاكمات. يُضاف إلى ذلك أنّها زادت من «قيودها الكاسحة على حريّة انتقال السكّان الفلسطينيين في الضفة الغربيّة،» ووسّعت المستوطنات اليهوديّة غير الشرعيّة هناك لتشملَ اليوم حوالى نصف مليون مستوطن، و«صادرت المزيدَ من أراضي الفلسطينيين،» و«مَنعت أيّة إمكانيّة للإنماء والبناء» في الأحياء الفلسطينيّة، ووزّعت المياهَ بشكلٍ تمييزيّ، وواصلتْ بناءَ جدارٍ سيضمّ ١٢٪ من الضفّة إلى إسرائيل بالرغم من أنّ محكمةَ العدل الدوليّة أَدْلَتْ برأيٍ استشاريّ يُفيد بأنّ الجدار غيرُ شرعيّ.

في كانون الثاني ٢٠٠٦ ربحتْ حماس انتخاباتٍ أَقَرّ العالمُ (بعبارة الرئيس الأميركيّ الأسبق جيمي كارتر) بأنّها «صادقةٌ ونزيهةٌ تمامًا.»[١] فردّت إسرائيل بفرض حصار اقتصاديّ على غزّة. وفي حزيران ٢٠٠٧ استَبَقَتْ حماس انقلابًا دبّرتْه الولاياتُ المتحدة وإسرائيل وعناصرُ من السلطة الفلسطينيّة.[٢] وبعد الانقلاب المجهَض عمدتْ إسرائيل إلى تكثيف حصارها، «بما يَرْقى إلى مستوى العقاب الجماعيّ، وهذا انتهاكٌ خطيرٌ للقانون الإنسانيّ الدوليّ» (بحسب هيومان رايتس واتش).[٣] وفي منتصف كانون الأول ٢٠٠٨ نشر مكتبُ تنسيق الشؤون الإنسانيّة في الأمم المتحدة دراسةً[٤] وَرَدَ فيها أنّ كثيرين هناك تُركوا بلا كهرباء فتراتٍ تصل إلى ١٦ ساعة يوميّاً، ولا يحصلون على الماء إلاّ مرةً أسبوعيّاً ولبضع ساعات فقط (علمًا أنّ ٨٠٪ من هذا الماء لا يستوفي معاييرَ الشرب التي تضعها منظمةُ الصحّة العالميّة)، وأنّ ٥٠٪ من السكّان تقريبًا بلا وظائف، وأنّ ٢٠٪ من «العقاقير الأساسيّة» مفقودة تمامًا، وأنّ أكثر من ٢٠٪ من المرضى (وعددُهم ٢٦٩١) المصابين بالسرطان وأمراض القلب وأوضاعٍ قاسيةٍ أخرى يعجزون عن تحصيل رُخصٍ تَسْمح لهم بالسفر لنيل الرعاية الصحّيّة.

إذنْ، ونظرًا إلى سجلّ إسرائيل في انتهاك حقوق الإنسان، وبصرف النظر عن أنّها هي التي خَرَقتْ وقفْ إطلاق النار، فإنّ الفلسطينيين كانوا أحقّ [من الإسرائيليين] في اللجوء إلى القوّة المسلّحة للدفاع عن أنفسهم في نهاية كانون الأول ٢٠٠٨.

استعادةُ «الخوفِ منّا»

تركّزت التكهّناتُ المبكّرةُ حيال دافع إسرائيل الحقيقيّ (إلى هجومها الأخير) على الانتخابات الإسرائيليّة التي كان قد تقرّر إجراؤها في ٢٠٠٩/٢/١٠. ولا شكّ في أنّ التسابق على الأصوات قد كان، بالفعل، عاملاً في هذا المجتمع السبارطيّ الذي يتأكّله «الثّأرُ والتعطّشُ إلى الدماء،»[٥] حيث قَتْلُ العرب يُبْهِجُ الجموعَ بالتأكيد (بيّنت الاستطلاعاتُ أثناء مجزرة غزّة أنّ ٨٠ ـ ٩٠٪ من اليهود الإسرائيليّين يؤيّدونها).[٦] لكنّ الصحافيّ الإسرائيليّ جدعون ليفي أشار إلى أنّ إسرائيل سبق أن شهدتْ «حربًا شبيهةً جدّاً... قبل عامين ونصف العام [في لبنان]، حين لم تكن ثمة انتخابات.»[٧] فالحال أنّه حين تكون مصالحُ الدولة الإسرائيليّة الحاسمة في خطر، فإنّ النُّخَبَ الحاكمة قلّما تشنّ عمليّاتٍ كبرى لقاء مكاسب انتخابيّةٍ ضيّقة.

في رأيي أنّ الدوافع الأساسيّة وراء الهجوم الإسرائيليّ الأخير على غزّة تقع في مكانٍ آخر، وتحديدًا في: ١) الحاجة إلى استعادة «قدرة الردع» الإسرائيليّة، و٢) التهديد الذي يفرضه «هجومُ السلام» الفلسطينيّ.

لقد كان «همُّ إسرائيل الأكبر» في عمليّة غزّة، على ما يَنْقل مراسلُ **نيويورك تايمز** إيثان برونر عن مصادر إسرائيليّة، هو إعادةَ بناء الرَّدع الإسرائيلي، لأنّ أعداء إسرائيل هم اليوم «أقلُّ خوفًا منها ممّا كانوا قبلاً أو ممّا كان ينبغي أن

---

١ ـ "Opening Remarks by Former U.S. President Jimmy Carter to the 2006 Human Rights Defenders Policy Forum" (23 May 2006; http://tinyurl.com/cgu5u2).

٢ ـ David Rose, "The Gaza Bombshell," **Vanity Fair** (April 2008).

٣ ـ Human Rights Watch, "Donors Should Press Israel to End Blockade" (1 March 2009).

٤ ـ United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA), **Gaza Humanitarian Situation Report- The Impact of the Blockade on the Gaza Strip: A Human Dignity Crisis** (15 December 2008).

٥ ـ Gideon Levy, "The Time of the Righteous," **Haaretz** (9 January 2009).

٦ ـ Ethan Bronner, "In Israel, A Consensus That Gaza War Is a Just One," **New York Times** (13 January 2009).

٧ ـ 29 December 2008; www.democracynow.org/2008/12/29/israeli_attacks_kill_over_310_in.

يكونوا.»[١] إنّ الحفاظ على طاقة إسرائيل الردعيّة كان وما يزال على الدوام أمرًا مهمّاً جدّاً في العقيدة الإسرائيليّة الإستراتيجيّة، بل كانت الحافزَ الرئيسَ وراء الضربة التي وجّهتْها إسرائيل إلى مصر في حزيران ٦٧ وأدّت إلى احتلال غزّة والضفّة. ولتبرير الهجوم على غزّة كتب المؤرّخ الإسرائيليّ بَني موريس أنّ «كثيرًا من الإسرائيليّين يَشْعرون بأن الجدرانَ... تنقبض عليهم... كما شَعروا [بذلك] إلى حدّ كبير في أوائل حزيران ٦٧.»[٢] (بعد عدّة شهور سَخِرَ جدعون ليڤي من اتّجار إسرائيل الملحاح بالخوف بوصفه «ملاذَ الشيطان: فهو يفسِّر ويبرِّر كلَّ شيء.»)[٣] نعم، لا شكّ في أنّ الإسرائيليّين العاديّين كانوا ممتلئين ذعرًا في حزيران ٦٧، لكنّ إسرائيل لم تكن تواجه تهديدًا وجوديّاً آنذاك، ولم يكن قادتُها قلقين من نتائج الحرب. لقد كان مأزقُ إسرائيل هو التصوّر المتعاظم في العالم العربيّ ـ المدفوع بقوميّة عبد الناصر الجذريّة وإشاراته المتحدّيّة في أيار (مايو) ١٩٦٧ ـ بأنّ ذلك العالم ليس مُجْبرًا على تلبية الأوامر الإسرائيليّة. ولذا ذكّر آرييل شارون، قائدُ الفرق العسكريّة الإسرائيليّة، كلَّ مَنْ تردَّدَ من الوزراء الإسرائيليين في شنّ ضربةٍ أولى ضدّ مصر بأنّ إسرائيل ستَفْقد «طاقتَها الردّعيّة... وهي سلاحُنا الأساس ـ أي الخوفُ منّا the fear of us.»[٦] وبحسب المحلّل الإسرائيليّ الإستراتيجيّ زئيف ماعوز، فإنّ إسرائيل شنّت حربَ حزيران ٦٧ من أجل «استعادة صِدقيّة الردع الإسرائيليّ.»[٧]

شكّل طردُ حزب اللّه لجيش الاحتلال الإسرائيليّ من لبنان في أيّار ٢٠٠٠ تحدّيًا آخرَ لقدرة إسرائيل الردعيّة. وذلك أنّ هزيمةَ إسرائيل المذلّة، التي احتفى بها العربُ في كلّ أقطارهم، حَتّمتْ نشوبَ حربٍ جديدة. وسرعان ما شرعتْ إسرائيلُ تخطّط لجولةٍ جديدة، ووَجدتْ في صيف ٢٠٠٦ الذريعةَ حين أَسَرَ حزبُ اللّه جنديّين إسرائيليّين (وقُتل آخرون في تلك العمليّة)، وطالبَ مقابلَ الإفراج عنهما بتحرير الأسرى اللبنانيّين في إسرائيل. غير أنّ إسرائيل مُنيتْ بهزيمةٍ مذلّةٍ أخرى، مع أنّها أطلقت العنانَ لغضب سلاح طيرانها الحربيّ وتهيّأتْ للغزو البرّيّ. وفي هذا الصدد يستنتج محلّلٌ عسكريٌّ أميركيّ، بالرغم من انحيازه لإسرائيل، أنّ «سلاحَ الجوّ الإسرائيليّ، وهو الذراعُ العسكريّةُ الإسرائيليّةُ التي دَمّرتْ ذاتَ مرّةٍ قواتٍ جوّيةً عربيّةً بأكملها خلال بضعة أيام، لم يُثْبتْ عجزَه عن وقف صواريخ حزب اللّه فحسب، بل عجزَه أيضًا عن إلحاقِ ما يكفي من الدمار لمنع حزب اللّه من الشفاء السريع.» واستنتج أيضًا أنّ القوات البرّيّة حين عَبرت الحدودَ مع لبنان «فشلتْ في الاستيلاء على معاقل حزب اللّه، بما فيها المعاقلُ القريبةُ من الحدود،» و«لم يتمّ إنقاذُ الأسيرَيْن الإسرائيليَيْن ولا تحريرُهما،» ولا أُوقف إطلاقُ صواريخ حزب اللّه بما في ذلك الصواريخُ البعيدةُ المدى نفسها... وتضعضعت القواتُ البرّيّة الإسرائيليّة وعجزتْ عن التقدّم أمام خصمٍ قديرٍ وجيّد العدّة.» وتوضح المقارنةُ بين بعض الأرقام حجمَ النكسة الإسرائيليّة: فقد وَضعَت إسرائيلُ ٣٠ ألف جنديّ في مواجهة ألفيْ مقاتلٍ نظاميّ من حزب اللّه، وأربعةِ آلافِ مقاتلٍ غيرِ نظاميّين من الحزب وغير الحزب؛ وأَطلقتْ إسرائيلُ ١٦٢ ألفَ صاروخ وقذيفة، في حين أَطلق حزبُ اللّه خمسةَ آلاف (أربعةُ آلافٍ منها على إسرائيل وألفُ صاروخٍ مضادّ للدّبّابات داخل لبنان).[٨] كما أنّ «الغالبيّة الساحقة من المقاتلين الذين دافعوا عن قرًى، كعَيْتا الشعب وبنت جبيل ومارون الراس، لم يكونوا مقاتلين نظاميّين من الحزب، بل لم يكونوا أحيانًا أعضاءً في الحزب» وأنّ «كثيرين من أفضل مقاتلي حزب اللّه وأمهرهم لم يقوموا بأيِّ نشاطٍ لأنهم كانوا ينتظرون على امتداد نهر الليطاني، متوقّعين أن يكون هجومُ جيش الدفاع الإسرائيليّ أعمقَ وأسرعَ ممّا هو عليه.»[٩]

على أنّ دليلاً آخر على انقلاب السيرة الإسرائيليّة يتمثّل في أنّ إسرائيل، خلافًا لكلّ نزاعاتها المسلّحة السابقة، لم تخُضِ المراحلَ الأخيرةَ من حرب ٢٠٠٦ تحدّيًا لقرار وقف إطلاق النّارَ الذي أعلنتْه الأممُ المتحدة بل أملاً في قرارٍ دوليّ يُنقذها!

بعد حرب ٢٠٠٦ على لبنان كانت إسرائيل تتلهّف على منازلة حزب اللّه من جديد، لكنْ لم يُتَحْ لها الخيارُ العسكريُّ ضدّه بعدُ. وفي منتصف العام ٢٠٠٨ سعتْ إسرائيل يائسةً إلى «تجنيد» الولايات المتحدة لتشنّ حربًا ضدّ إيران، اعتقادًا منها بأن ذلك سيَقْطع رأسَ حزب اللّه أيضًا، فيُخضع من ثم المتَحدِّين الرئيسيِّين لهيمنتها الإقليميّة. لكنّ الحربَ الأميركيّة على إيران لم تَحْصلْ، ويا لأسى إسرائيل وذلّها، وتراجعتْ صدقيّةُ طاقة

---

١ ـ Ethan Bronner, "Israel Reminds Foes That It Has Teeth," **New York Times** (29 December 2008).

٢ ـ Benny Morris, "Why Israel Feels Threatened," **New York Times** (30 December 2008).

٣ ـ Gideon Levy, "Twilight Zone: Waiting for the All Clear," **Haaretz** (30 April 2009).

٦ ـ Tom Segev, **1967: Israel, the War, and the Year That Transformed the Middle East** (New York: 2007), p. 293.

٧ ـ Zeev Maoz, **Defending the Holy Land: A Critical Analysis of Israel's Security and Foreign Policy** (Ann Arbor: 2006), p. 89.

٨ ـ William Arkin, **Divining Victory: Airpower in the 2006 Israel-Hezbollah War** (Maxwell Air Force Base, AL: 2007), pp. xxi, xxv-xxvi, 25, 54, 64, 135, 147-48.

٩ ـ Andrew Exum, **Hizballah at War: A Military Assessment** (Washington Institute for Near East Policy, December 2006), pp. 9, 11-12.

إسرائيل على الإرهاب درجةً جديدةً. لقد آن الأوانُ، إذنْ، للعثور على هدفٍ غير محميّ لمحوه، فجاءت غزّة: صالةُ عرضٍ إسرائيل المفضّلة لإطلاق النار! غير أنّه، في غزّة نفسها، قاومتْ حركةُ حماس، الضعيفةُ التسليح، الأوامرَ الإسرائيليّة غيرَ هيّابةٍ، وتبجّحتْ بأنّها أَجبرتْ عام ٢٠٠٥ إسرائيلَ على «الانسحاب» من غزّة، وأَجبرتها في حزيران ٢٠٠٨ على قبول وقف إطلاق النار. ولئن كانت غزة هي المكان الذي راحت إسرائيلُ تفكّر في استعادة قدرتها الردعيّة فيه، فقد سبق للبنان أنْ بيّن **كيفيّةَ** ذلك.

في رأيي أنّ الدوافع الأساسيّة وراء الهجوم على غزّة تقع تحديداً في ١) الحاجة إلى استعادة «قدرة الردع الإسرائيليّة» و٢) التهديد الذي يَفْرضه «هجوم السلام» الفلسطينيّ

ففي صيف ٢٠٠٦ سَوَّت إسرائيلُ ضاحيةَ بيروت الجنوبيّة بالأرض. وعقب انتهاء الحرب بدأ الضبّاطُ الإسرائيليّون يتحدّثون عن «إستراتيجيّة الضاحية.» وقد شرح قائدُ المنطقة الشماليّة في الجيش الإسرائيليّ غادي آيزنكوت ذلك بالقول: «سوف نَستخدم قوةً غيرَ متكافئة (disproportionate power) ضدّ كلّ قرية تُطلَق منها النيرانُ على إسرائيل، وسنسبِّب دمارًا وخرابًا هائلَيْن. وهذا ليس اقتراحًا، بل خطّة تمّ الترخيصُ لها فعلاً [من قِبل القيادة السياسيّة].» ولقد ثنّى الكولونيل الاحتياطيُّ غبريال سيبوني على ذلك، فقال إنّ على إسرائيل ـ في حال نشوب أعمالٍ عدائيّةٍ جديدة ـ «أن تتصرّف فورًا، وبحزم، وبقوةٍ غير متكافئة. إنّ مثل هذا الردّ يَهْدف إلى إلحاق الدمار وإنزال العقاب إلى حدٍّ يَسْتلزم عمليّةَ إعادةِ بناءٍ طويلةً وباهظةَ الثمن.» ولقد أُعدّت هذه الإستراتيجيّةُ الجديدةُ لتُستخدمَ ضدّ كلّ خصوم إسرائيل الإقليميّين الذين تحدّوْا إسرائيل، لكنّ غزّة أُفْرِدَتْ هدفًا أوّلَ فيها. «المؤسف أنّها لم تُنَفَّذْ فورًا بعد فكّ الارتباط مع غزّة [عام ٢٠٠٥] وبعد صَلية الصواريخ [الفلسطينيّة] الأولى،» ذلك ما قاله ناقدٌ إسرائيليٌّ معتَبَر؛ «فلو اعتمدنا إستراتيجيّةَ الضاحية لوفَّرْنا على أنفسنا في الأغلب كثيرًا من المتاعب.» وبعد أحد الاعتداءات الفلسطينيّة الصاروخيّة على إسرائيل، حثّ وزيرُ الداخليّة الإسرائيليّة مئير شطريت في أواخر أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٨ على ضرورة أن «ينتقي جيشُ الدفاع الإسرائيليّ أحدَ أحياء غزّة ويسوّيَه بالأرض!»[١]

يمكن التقاطُ الخطّة الإسرائيليّة للهجوم على غزّة من مصادر عليمة. «إنّ ما علينا فعلُه هو العملُ المنهجيّ بهدف معاقبة كلّ المنظّمات التي تُطلق الصواريخَ والقذائف، ومعاقبةُ المدنيّين الذين يمكّنون [أفرادَ] هذه المنظّمات من إطلاقها ومن الاختباء» (اللواء المتعاقد أميرام ليڤين)؛ «بعد هذه العمليّة لن يَبْقى مبنًى واحدٌ لحماس في غزّة» (نائب رئيس الأركان في الجيش الإسرائيليّ دان هارلْ)؛ «كُلُّ ما يتّصل بحماس هدفٌ مشروع» (الناطق الرسميّ باسم الجيش أڤيتال ليبوڤيتش).[٢] وفي حين قَتلتْ إسرائيل ٥٥ لبنانيّاً في اليومَيْن الأوّلَيْن من حرب تمّوز ٢٠٠٦، هَلّلتْ وسائلُ الإعلام الإسرائيليّة لحملة «الصَّدْم والترويع» الإسرائيليّة (بحسب **معاريف**)[٣] «إذ قَتلتْ حوالى ٣٠٠ غزّاوي في أربع دقائق فقط من اليوم الأوّل على مذبحة غزّة. وبعد أيام من المذبحة لاحظ محلِّلٌ إستراتيجيّ إسرائيليّ عليم أنّ «جيش الدفاع الإسرائيليّ، الذي خطّط لمهاجمة مبانٍ ومواقعَ مأهولةٍ بمئات الناس، لم يحذّرْهم مسبّقًا من ضرورة المغادرة، بل كان ينوي أن يقتلَ عددًا كبيرًا منهم، وقد نجح في ذلك.[٤]

ومع تقدّم سير العملية العسكريّة أَسقطتْ إسرائيلُ كلَّ المزاعم القائلة إنّ هجمات حماس الصاروخيّة هي التي سبّبتْها. هكذا قال وزيرٌ إسرائيليٌّ سابق: «تذكّروا أنّ خصمَ باراك الحقيقيّ ليس حماس، بل ذكرى [حرب] ٢٠٠٦.»[٥] وتحدّث المعلّقون الإسرائيليّون بارتياحٍ [خبيث] قائلين إنّ «غزّة بالنسبة إلى لبنان هي بمثابة الامتحانِ الثاني بالنسبة إلى الامتحان الأول، أيْ فرصةٌ ثانيةٌ لتحقيق المراد،» وإنّ إسرائيل هذه المرّة لم «تَقْذفْ بغزّة ٢٠ سنةً إلى الوراء كما كانت قد وَعدتْ بأن تفعل ذلك للبنان،» بل قَذَفَتْها «إلى أربعينيّات القرن العشرين (فالكهرباء لا تتوفّر إلاّ ساعاتٍ قليلة في اليوم)». كما تبجّحوا بأنّ إسرائيل «استعادتْ قدراتِها الردعيّة» لأنّ «الحرب على غزّة عَوّضتْ من عيوب حرب لبنان الثانية [عام ٢٠٠٦]،» وبأنّ «زعيم حزب اللّه

---

١ ـ Yaron London, "The Dahiya Strategy" (6 October 2008; http://tinyurl.com/c7tdjv). Gabriel Siboni, "Disproportionate Force: Israel's Concept of Response in Light of the Second Lebanon War," **Institute for National Security Studies (INSS)** (2 October 2008). Amos Harel, "Analysis: IDF Plans to Use Disproportionate Force in Next War," **Haaretz** (5 October 2007). Joseph Nasr, "Israel Warns Hezbollah War Would Invite Destruction," **Reuters** (2 October 2008). Attila Somfalvi, "Sheetrit: We Should Level Gaza Neighborhoods" (2 October 2008; http://tinyurl.com/c264xn).

٢ ـ "Israeli General Says Hamas Must Not Be the Only Target in Gaza," IDF Radio, Tel Aviv, in Hebrew 0600 gmt (26 December 2008), BBC Monitoring Middle East; Tova Dadon, "Deputy Chief of Staff: Worst Still Ahead" (29 December 2008; http://tinyurl.com/crwdbw); http://tinyurl.com/8gxwox.

٣ ـ Seumas Milne, "Israel's Onslaught on Gaza is a Crime That Cannot Succeed," **Guardian** (30 December 2008).

٤ ـ Reuven Pedatzur, "The Mistakes of Cast Lead," **Haaretz** (8 January 2009).

٥ ـ International Crisis Group, "Ending the War in Gaza," 5 January 2009), p. 18.

حسن نصر اللّه قلقٌ هذه الأيام... ولن يكون ثمّة أحدٌ بعد اليوم في العالم العربيّ يستطيع أن يزعم أنّ إسرائيل ضعيفة.»[١]

وإلى جوقة ترانيم التسبيح [الهلّليلويا] انضمّ خبيرُ الشؤون الخارجية في **نيويورك تايمز**، توماس فريدمان.[٢] فهو يرى أنّ إسرائيل ربحتْ حربَ لبنان عام ٢٠٠٦ **لأنّها** أنزلَتْ بلبنان «دمارًا عظيمًا في الممتلكات وخسائرَ جانبيّةً [غير مباشرة]،» وبذلك «رَبَّتْ» حزب اللّه ولقّنته درسًا، مفادُه: أنّ عليه، خوفًا من غضب الشعب اللبنانيّ، «أن يفكّر ثلاثَ مراتٍ في المرّة القادمة» قبل أن يتحدّى إسرائيل. وعَبَّر فريدمان عن أمله في أن تكون إسرائيل «تحاول» بالمثل، أن «تربّي حماس، وذلك بإنزالها خسائرَ باهظةً في أرواح مقاتلي حماس وألمًا بالغًا في شعب غزّة.»

غير أنّ استهدافَ إسرائيل للمدنيين اللبنانيّين، وللبنى التحتيّة المدنيّة في لبنان عام ٢٠٠٦، لم يتمّ لأنّ إسرائيل لم تكن تَمْلك خيارًا آخر، ولا لأنّ حزب اللّه كان قد استفزّها إلى ذلك، بل **لأنّ** إرهابَ المدنيّين اللبنانيين ظهرَ وكأنّه وسيلةٌ مجّانيةٌ لـ «التربية [أو تلقين الدرس]» تُفضّل كثيرًا على الاشتباك مع خصمٍ حقيقيّ ومعاناةِ الإصابات الباهظة من جرّائه. ومع ذلك فإنّه ينبغي القولُ إنّ إسرائيل «ربّتْ» بنجاحٍ فعلاً المدنيّين اللبنانيّين، ولهذا راعى حزبُ اللّه ألاّ يستعديَ إسرائيلَ أثناء مجزرة غزّة.[٣] كما أنّ سياسةَ إسرائيل «التلقينيّة» حَقّقتْ نجاحًا في أوساط شعب غزّة. وفي هذا الصدد تذكر «المجموعة الدوليّة للأزمات» أنّه «يَصْعب إقناعُ الغزّاويين الذين دُمّرتْ بيوتُهم وقُتلتْ عائلاتُهم وأصدقاؤهم أو جُرحوا بأنّ ذلك يعني 'نصرًا'» على ما تباهتْ حماس.

إنّ التبرير الذي قدّمه فريدمان على صفحات **نيويورك تايمز** لاستهداف المدنيين والبنى التحتيّة المدنيّة يُعتبر دفاعًا عن إرهاب الدولة (State Terrorism).[٤] وينبغي أن نلاحظ أخيرًا أنّ طريقة عمل إسرائيل من أجل استعادة طاقتها الردعيّة تتكشّف عن خطٍّ مائلٍ يتراجع تدريجيّاً باتجاه البربريّة. فلقد ربحتْ إسرائيل في حزيران ٦٧ في ساحة الحرب فعلاً ـ وإنْ في ما يشْبه «إطلاقَ نارٍ على ديوكٍ رومية» بحسب روستو[٥] ـ غير أنّها سعت في الحروب الأخرى، ولاسيّما في لبنان، إلى أمريْن معًا: تحقيق انتصارها في ساحة الحرب، وقصفِ المدنيين من أجل إخضاعهم. إلاّ أنّها في غزّة استهدفتِ استعادةَ قوّتها الردعيّة لأنّها تجنّبتْ أيّة مخاطرَ تَنْجم عن الحروب التقليديّة؛ لقد استهدفتْ غزّة من أجل إبادتها **لأنّ** غزّة كانت مُنْهَكَةً.

إحدى الفوائد الثانويّة الناتجة من إستراتيجيّة إسرائيل الترهيبيّة، التي اختارتها لاستعادة طاقتها الردعيّة، هي أنّها استعادت بفعلها أيضًا معنويّاتها في الداخل. وفي هذا الصدد استنتجتْ وثيقةٌ داخليّةٌ للأمم المتحدة في شباط (فبراير) ٢٠٠٩ أنّ أحد «الإنجازات البارزة» للمجزرة هو أنّها بدّدتْ شكوكَ الإسرائيليين في «قدرتهم وفي قوّة جيش الدفاع الإسرائيليّ على توجيه ضربة إلى أعدائها... إنّ استخدام 'القوّة المُفْرطة'... يُثْبت أنّ إسرائيل هي السيّد [الريّس]... وإنّ صورَ الدمار كان يُقْصَدُ توجيهُها إلى العيون الإسرائيليّة أكثرَ من توجيهها إلى عيون أعداء إسرائيل...»[٦]

الحؤول دون البراغماتيّة الإسلاميّة

على أنّ هدفَ إسرائيل الأساسَ في مذبحة غزّة، وفي ما يتعدّى استعادةَ قوّتها الردعيّة، قد كان مواجهةَ الخطر الذي فَرَضَه الاعتدالُ الفلسطينيّ. فعلى امتداد العقود الثلاثة الأخيرة واصَلَ المجتمعُ الدوليّ دعمَه الثابتَ لتسوية الصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ من خلال الدعوة إلى دولتيْن، وبالاستناد إلى انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدودها ما قبل حزيران ١٩٦٧، وإلى «حلٍّ عادلٍ» لمشكلة اللاجئين على أساس حقّ العودة والتعويض. وفي التصويت الذي جرى عام ٢٠٠٨ على قرار الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة، كان مؤيِّدو تلك البنود لحلّ النزاع ١٦٧ دولةً (بما فيها إيران)، وكان معارضوها ٧ (إسرائيل، والولايات المتحدة، وأوستراليا، وجزر المارشال، ومايكرونيزيا، ونورو، وپالاو!)، و٣ ممتنعين. وعلى المستوى الإقليميّ كانت قمّةُ الجامعة العربيّة التي عُقدتْ في بيروت في آذار (مارس) ٢٠٠٢ قد طرَحَتْ، بالإجماع، مبادرةَ سلام على هذا الأساس، وأعادت تأكيدَها في مناسبات لاحقة (كان آخرَها قمّةُ الجامعة العربيّة في الدوحة في آذار ٢٠٠٩)؛ كما أنّ كلّ الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلاميّ الـ ٥٧ (بما فيها إيران) «تبنّت مبادرةَ السلام العربيّة لحلّ مسألة فلسطين والشرق الأوسط...»[٧]

---

١ ـ Amos Harel and Avi Issacharoff, "Israel and Hamas Are Both Paying a Steep Price in Gaza," **Haaretz** (10 January 2009); Ari Shavit, "Analysis: Israel's Victories in Gaza Make Up for its Failures in Lebanon," **Haaretz** (12 January 2009); Guy Bechor, "A Dangerous Victory" (12 January 2009; http://tinyurl.com/c7gn7e).

٢ ـ Thomas L. Friedman, "Israel's Goals in Gaza?," **New York Times** (14 January 2009).

٣ ـ International Crisis Group, "Gaza's Unfinished Business," p. 19n198.

٤ ـ Glenn Greenwald, "Tom Friedman Offers a Perfect Definition of Terrorism" (14 January 2009; http://tinyurl.com/axu88g).

٥ ـ "Memorandum for the Record" (17 November 1968), n. 13, Foreign Relations of the United States, 1964-1968.

٦ ـ International Crisis Group, "Gaza's Unfinished Business", p. 19.

٧ ـ Final Communiqué of the Twenty-Ninth Session of the Islamic Conference of Foreign Ministers (Session of Solidarity and Dialogue), Khartoum, Republic of the Sudan (25-27 June 2002).

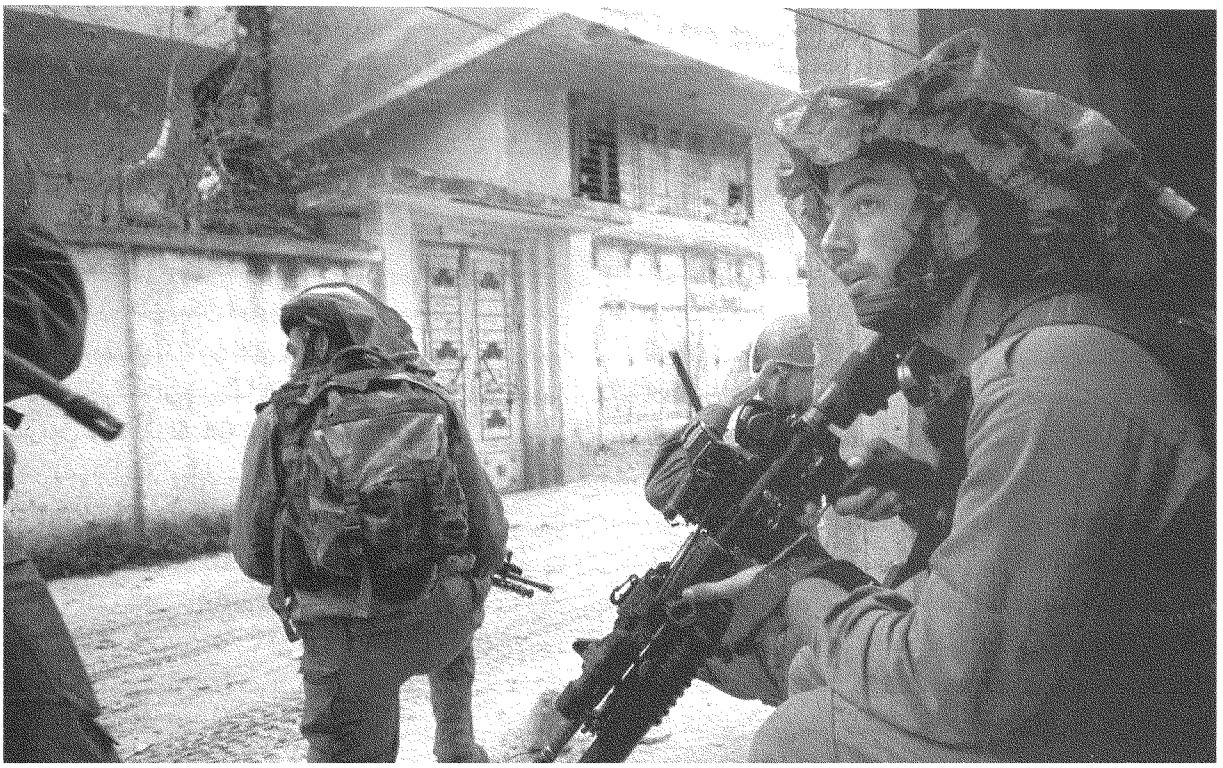

غزّة: صالة عرض إسرائيل المفضّلة لإطلاق النيران!

وفي السنوات الأخيرة أشارت حركةُ حماس إلى قبولها مبادرةَ الجامعة العربيّة للسلام، وتأييدها للتسوية القائمة على دولتيْن فلسطينيّة وإسرائيليّة. فخالد مشعل، رئيسُ المكتب السياسيّ لحماس، حَدّد في مقابلةٍ أُجريتْ معه في آذار ٢٠٠٨ أنّ «معظم القوى الفلسطينيّة، بما فيها حماس، تَقْبل بدولةٍ على حدود ٦٧.»[١] بل هو أعاد بعد مجزرة غزّة القولَ إنّ «الهدفَ يبقى تشكيلَ دولة فلسطينيّة تكون عاصمتُها القدس الشرقيّة، وعودةَ الإسرائيليين إلى حدود ما قبل ١٩٦٧، وحقّ عودة اللاجئين.»[٢] وفي صياغةٍ مكمّلة، أَخْبر مشعل جيمي كارتر عام ٢٠٠٦ أنّ «حماس وافقتْ على قبول أيّ اتفاقِ سلام يتمّ التفاوضُ عليه بين قادة منظّمة التحرير الفلسطينيّة (م.ت.ف) وإسرائيل شرطَ أن يوافِقَ عليه الفلسطينيّون في استفتاء، أو توافِقَ عليه حكومةٌ منتخَبَةٌ ديمقراطيّاً.»[٣] ولم تَعُدْ حماس تُحيل على «ميثاقها السيّئ الصيت.»[٤] وكان المسؤولون الإسرائيليّون يَعْلمون كلّ العلم أنّه بالإمكان التوصّل إلى تسويةٍ ديبلوماسيّةٍ مع حماس بالرغم من أنفها. فقد لاحظ رئيسُ الموساد الأسبق أنّ «قادة حماس أدركوا أنّ هدفَهم الإيديولوجيّ لا يُمْكن تحقيقُه... وهم مستعدّون وراغبون في أن يروْا إنشاءَ دولةٍ فلسطينيّةٍ على الحدود الموقّتة لعام ٦٧... ويَعْلمون أنّهم ـ في اللحظة التي تُنشأ فيها دولةٌ فلسطينيّةٌ بتعاونهم ـ فسيُجْبَرون على تغيير قواعد اللعبة: إذ سيكون عليهم تبنّي مسارٍ قد يؤدّي بهم بعيدًا عن أهدافهم الإيديولوجيّة الأصليّة.»[٥]

بعد أن رَفضتْ إسرائيل طوال شهور اقتراحاتِ حماس لوقف النار، عادت فقبلتْها في حزيران ٢٠٠٨.[٦] ولقد راعت حماس «أن تحافظَ على وقف النار،» بحسب نشرةٍ رسميّةٍ إسرائيليّة، بالرغم من نَكْثِ إسرائيل بتعهّدها رَفْعَ الحصار الاقتصاديّ

---

١ ـ Mouin Rabbani, "A Hamas Perspective on the Movement's Evolving Role: An Interview with Khalid Mishal, Part II," **Journal of Palestine Studies** (Summer 2008). Kobi Ben-Simhon, "Israel Could Have Made Peace with Hamas Under Yassin," **Haaretz** (18 April 2009). Jerome Slater, "A Perfect Moral Catastrophe: Just War Philosophy and the Israeli Attack on Gaza," **Tikkun**, March-April 2009.

٢ ـ Gianni Perrelli, "Con Israele non sarà mai pace" (Interview with Khalid Mishal), **L'espresso** (26 February 2009).

٣ ـ Jimmy Carter, **We Can Have Peace in the Holy Land: A Plan That Will Work** (New York: 2009), pp. 137, 177.

٤ ـ Sherifa Zuhur, **Hamas and Israel: Conflicting Strategies of Group-Based Politics** (Carlisle, PA: 2008), pp. 29-31.

٥ ـ "What Hamas Wants," **Mideast Mirror** (22 December 2008).

٦ ـ Zuhur, **Hamas and Israel**, pp. xi, 14.

بشكلٍ كبيرٍ عن غزّة. ويواصل المصدرُ الإسرائيليُّ فيقول «إنّ الهدوء تعرَّضَ لانتهاكاتٍ متقطّعةٍ بالصواريخ والقذائف على يد منظّماتٍ إرهابيّة مارقة، ولكنّ حركة حماس في الوقت نفسه حاولتْ فرضَ بنود الاتفاق على المنظمات الإرهابيّة الأخرى ومنْعَها من انتهاكها.»[١] كما أنّ حماس كانت «مهتمّة بتجديد الهدوء النسبيّ مع إسرائيل» (بحسب رئيس جهاز الشين بيت يوڤال ديسكين) حتى بعد أن خَرقتْ إسرائيل وقفَ إطلاق النار.[٢] إذنْ، كان يمكن الوثوقُ بأنّ حركة حماس قادرةٌ على الالتزام بتعهّداتها، الأمرُ الذي كان سيجعلها شريكًا تفاوضيّاً ذا صدقيّة؛ كما أنّ قدرتَها الظاهرةَ على انتزاع التنازلات من إسرائيل ـ خلافًا للسلطة الفلسطينيّة العاثرة الحظّ التي تنفّذ أوامرَ إسرائيل بلا مقابل ـ يعزّز من مكانتها بين الفلسطينيين.

كان قبولُ حماس بحلّ الدولتين ووقفِ إطلاق النار كارثةً حقيقيّةً لإسرائيل. إذ لم يعد بمقدور هذه الأخيرة أن تبرِّر تجنُّبَها لحماس، ولن يمضي وقتٌ طويلٌ حتى يجدِّد الأوروبيون حوارَهم وعلاقاتِهم بحماس. كما أنّ إمكانيّة أن تتفاوض الإدارةُ الأميركيّةُ القادمة [أوباما] مع إيران وحماس ستزيد من تسليط الضوء على تصلُّب إسرائيل. وفي سيناريو بديلٍ آخر، تصوَّرَهُ حسن نصر الله، فإنّ الإدارة الأميركيّة القادمة خطّطتْ لعقد مؤتمر دوليّ للسلام يضمّ «الأميركيين والإسرائيليين والأوروبيين وما يسمّى المعتدلين العرب» من أجل فرض تسوية، ولكنّ العائق الأول هو «المقاومةُ الفلسطينيّة وحكومةُ حماس في غزّة» و«التخلُّصُ من حجر العثرة هذا... هو الهدفُ الحقيقيُّ للحرب.»[٣] في كلّ الأحوال، كان على إسرائيل أن تستفزّ حماس لتواصل أعمالها الهجوميّة، فتدمِّرها، وتمحوها بوصفها شريكًا تفاوضيّاً شرعيّاً!

لم تكن تلك هي المرةَ الأولى التي تواجه فيها إسرائيلُ مثلَ هذا التهديد الشيطانيّ ـ من مبادرةِ سلامٍ عربيّة، إلى دعمٍ فلسطينيّ مشروطٍ لتسوية قائمةٍ على حلّ دولتين ووقفٍ لإطلاق نار؛ ولا كانت المرةَ الأولى التي تَعْمد فيها إسرائيل إلى الاستفزاز والحرب للتغلّب على ذلك التهديد. ففي منتصف السبعينيّات بدأ الجناحُ الرئيس في م.ت.ف. بدعم حلّ الدولتين على حدود حزيران ١٩٦٧؛ كما أنّ م.ت.ف (التي كانت قيادتُها تتّخذ من بيروت معقلاً لها) كانت ملتزمةً تمامًا بوقف إطلاق النار مع إسرائيل بموجب اتفاق تمّ في تمّوز (يوليو) ١٩٨١.[٤] في آب (أغسطس) ١٩٨١ كشفت السعوديّةُ عن خطّة سلام قائمةٍ على حلّ الدولتيْن، ووافقتْ جامعةُ الدول العربيّة لاحقًا على هذه الخطّة.[٥] فردّت إسرائيل في أيلول (سبتمبر) ١٩٨١ بتصعيد الاستعدادات لتدمير م.ت.ف.[٦] يورد المحلّل الإستراتيجيّ الإسرائيليّ أڤنر يانيف في تحليله للاستعدادات الإسرائيليّة لحرب لبنان عام ١٩٨٢ أنّ ياسر عرفات كان يفكّر في تسويةٍ تاريخيّة مع «الدولة الصهيونيّة،» في حين عارضتْ «كلُّ الحكومات الإسرائيليّة منذ ١٩٦٧» فضلاً عن «الحمائم الرئيسة البارزة» قيامَ دولةٍ فلسطينيّة. وإذ خشيتْ إسرائيل من ضغوطٍ ديبلوماسيّةٍ فقد ناورتْ من أجل تعطيل حلّ الدولتيْن، وذلك بمحو م.ت.ف كشريكٍ تفاوضيٍّ محتمل. وهكذا شنّت غاراتٍ عسكريّةً انتقاميّةً «غيرَ متناسبة عمدًا» ضدّ «المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين» من أجل إضعاف «المعتدلين في م.ت.ف» ولتقوية يد «منافسي عرفات الراديكاليين» وضمان «تصلُّبِ» م.ت.ف. لكنْ كان على إسرائيل في النهاية أن تختارَ بين خياريْن مرّيْن: إمّا «خطوة سياسيّة تقود إلى تسوية تاريخيّة مع م.ت.ف، وإمّا عمل عسكريّ استباقيّ ضدّها.» ولصدّ «هجوم عرفات السّلامي» ـ وتلك عبارةُ يانيف الكاشفة ـ شنّتْ إسرائيلُ عملاً عسكريّاً في حزيران (يونيو) ١٩٨٢. كان الغزو الإسرائيليّ قد سبقَه «ما يزيد عن عامٍ من وقف النار الفعّال مع م.ت.ف.» ولكنْ بعد تحرّشات إسرائيليّة استفزازيّة (كان آخرَها عملٌ أدّى إلى مقتل ٢٠٠ مدنيّ، بينهما ٦٠ في مستشفى فلسطين للأطفال) ردّت م.ت.ف، موقِعةً ضحيّة إسرائيليّة واحدة.[٧] وعلى الرغم من أنّ إسرائيل استخدمتْ عودةَ م.ت.ف إلى شنّ هجماتها على شمالي إسرائيل ذريعةً لاجتياحها (المسمّى «عمليّة سلامة الجليل»)، فقد خلص يانيف إلى أنّ «مبرّر وجود العمليّة بأسرها قد كان تدميرَ م.ت.ف بوصفها قوّةً سياسيّةً قادرةً على المطالبة بدولة فلسطينيّة على الضفة الغربيّة.»[٨]

لنعد الآن سريعًا إلى الحاضر. في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ ذكرتْ وزيرةُ الخارجيّة الإسرائيليّة تسيپي ليڤني أنّ هدنةً طويلةً

---

١ ـ Intelligence and Terrorism Information Center at the Israel Intelligence Heritage and Commemoration Center, **The Six Months of the Lull Arrangement** (December 2008), pp. 2, 6, 7.

٢ ـ "Hamas Wants Better Terms for Truce," **Jerusalem Post** (21 December 2008).

٣ ـ Hezbollah Secretary General Sayyed Hassan Nasrallah's Speech Delivered at the Central Ashura Council, 31 December 2008.

٤ ـ Noam Chomsky, **The Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians** (Boston: 1983), chapters 3, 5.

٥ ـ Yehuda Lukacs (ed), **The Israeli-Palestinian Conflict: A Documentary Record, 1967-1990** (Cambridge: 1992), pp. 477-79.

٦ ـ Yehoshaphat Harkabi, **Israel's Fateful Hour** (New York: 1988), p. 101.

٧ ـ Robert Fisk, **Pity the Nation: The Abduction of Lebanon** (New York: 1990), pp. 197, 232.

٨ ـ Avner Yaniv, **Dilemmas of Security: Politics, Strategy and the Israeli Experience in Lebanon** (Oxford: 1987), pp. 20-23, 50-54, 67-70, 87-89, 100-1, 105-6, 113, 143.

مع حماس «تؤذي الهدفَ الإستراتيجيّ الإسرائيليّ، وتقوّي حماس، وتعطي الانطباعَ بأنّ إسرائيل تعترف بهذه الحركة.»[١] وترجمةُ هذا القول هو أنّ وقفًا طويلاً لإطلاق النار، يسلّط الضوءَ على براغماتيّة حماس قولاً وفعلاً، ويُثْمر ضغطًا دوليّاً على إسرائيل من أجل التفاوض على حلٍّ ديبلوماسيّ، سيقوِّض من هدف إسرائيل الإستراتيجيّ في الاحتفاظ بالضفّة الغربيّة. لقد كانت إسرائيل قد عقدت النيّة على مهاجمة حماس منذ آذار (مارس) ٢٠٠٧، ولم تُذْعن لهدنة حزيران (يونيو) ٢٠٠٨ إلاّ «لأنّ الجيش الإسرائيلي كان يحتاج إلى الوقت للاستعداد [للهجوم].»[٢] وبعد توافر الشروط لم يعد أمام إسرائيل إلاّ إجهاضُ وقف إطلاق النار. والحال أنّ دراسةً متأنّية للفترة الممتدّة بين العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨ قد بيّنتْ أنّ «إسرائيل، وبشكلٍ كاسح، كانت هي التي تبادر إلى القتل بعد أن يَخْمد النزاع»[٣]: فعلى سبيل المثال كانت إسرائيلُ هي التي خَرَقتْ هدنةً غيرَ مكتوبةٍ مع حماس بدأتْ في نيسان (أبريل) ٢٠٠٥؛ وبعد فوز حماس في انتخابات ٢٠٠٦ كانت إسرائيل هي التي ثابرتْ على ممارساتها اللاشرعيّة المتمثّلة في «الاغتيالات الموجّهة» بالرغم من توقّف حماس عن إطلاق النار؛[٤] وفي ٢٠٠٨/١١/٤ كانت إسرائيل هي مَنْ خرق وقف إطلاق النار بقتلها ٧ ناشطين فلسطينيين بذريعةٍ لا تنطلي على أحد، وكانت تَعْلم تمامًا أنّ ذلك سيَدفع حماس إلى الردّ.[٥]

وبعد أن استأنفتْ حماس إطلاقَ صواريخها كما كان متوقّعًا، «ثأرًا» ـ كما جاء في تقرير مركز المعلومات الإسرائيليّ للاستخبارات والإرهاب ـ أَحكمتْ إسرائيلُ من جديدٍ حصارَها الاقتصاديَّ اللاشرعيَّ على غزّة، مطالبةً في الوقت نفسه بوقفٍ غير مشروط وأحاديّ الجانب من حماس. ولو لم تردّ حماس على عمليّة ١١/٤ الإسرائيليّة لكان من شبه اليقين أن تصعِّد إسرائيل استفزازاتها، حتى لا يعودَ ضبطُ النفس أمرًا ممكنًا سياسيّاً بالنسبة إلى حماس. وفي كلّ الأحوال، وفي مواجهة حصار إسرائيليّ خانقٍ حتى لو أوقفتْ حماس إطلاقَ الصواريخ، وأمام خيارَيْن لا ثالث لهما (إمّا «الجوعُ وإما القتل»)،[٦] فقد اختارت حماس المقاومة، وإنْ كانت رمزيّةً إلى حدّ كبير. وإذّاك زعمتْ إسرائيل «حقَّها» في الدفاع عن النفس أمام رُعاتها الغربيين السُّذّج طوعًا، وشنّتْ غزوًا إجراميّاً آخر من أجل إحباط هجومٍ سلاميّ فلسطينيّ آخر!

«إنّ البلاغات الرسميّة التي ينشرها جيشُ الدفاع الإسرائيليّ قد حرّرتْ نفسها، بشكل تدريجيّ، من ضوابط الحقيقة، وإنّ لبّ بنية السلطة ـ الشرطة والجيش والمخابرات ـ مصابٌ بلوثة ثقافة الكذب» (ب. مايكل)

في أعقاب المجزرة: تبييضُ السجلّ، الاعتراف، الإدانة

بعيْد انتهاء المجزرة نشر أنطوني كوردسمان «تحليلاً إستراتيجيّاً» لـ «حرب غزّة.»[٧] وخلص إلى استنتاج لافتٍ، وهو أنّ إسرائيل «لم تنتهكْ قواعدَ الحرب!» استند التّقريرُ إلى ملخّصات إسرائيليّة، أثناء القتال وبعدها، وقد أتاحتها زيارةٌ تمّت برعاية Project Interchange، واستخدمتْ تقاريرَ يوميّة صدرتْ عن الناطق الرسميّ باسم جيش الدفاع الإسرائيليّ. غير أنّ كوردسمان لم يتذكّر أنّ Project Interchange معهدٌ تابع لـ «اللجنة اليهوديّة الأميركيّة»!

وفي حين يَمْحض كوردسمان ملءَ ثقته لتصاريح طبقة الموظّفين الإسرائيليين، فإنّ المحلّلين الإسرائيليين المحترمين محضوا هؤلاء ثقةً أقلّ. فقط لاحظ عوزي بنزيمان في **هآرتس** أنّ «سلطات الدولة، بما فيها مؤسسةُ الدفاع وفروعُها، قد اكتسبتْ سمعةً مشبوهةً حين يتعلّق الأمرُ بصدقيّتهم.» وكتب ب. مايكل في **يديعوت أحرونوت** «أنّ البلاغات الرسميّة التي ينشرها جيشُ الدفاع الإسرائيليّ قد حَرّرتْ نفسَها، بشكلٍ تدريجيّ، من ضوابط الحقيقة،» وأنّ «لُبَّ بنية السلطة» ـ الشرطة والجيش والمخابرات ـ مصابٌ بلوثة «ثقافة الكذب.»[٨] ولقد ضُبطتْ إسرائيلُ أثناء مجزرة غزّة متلبِّسةً، مرارًا وتكرارًا، بالكذب ـ من

---

١ ـ Saed Bannoura, "Livni Calls for a Large Scale Military Offensive in Gaza," **IMEMC** & Agencies (10 December 2008; http://tinyurl.com/chqtk7).

٢ ـ Uri Blau, "IDF Sources: Conditions not yet Optimal for Gaza Exit," **Haaretz** (8 January 2009); Barak Ravid, "Disinformation, Secrecy, and Lies: How the Gaza Offensive Came About," **Haaretz** (28 December 2008).

٣ ـ Nancy Kanwisher, Johannes Haushofer, Anat Biletzki, "Reigniting Violence: How do Ceasefires End?," **The Huffington Post** (6 January 2009; http://tinyurl.com/dfujv3).

٤ ـ Slater, "A Perfect Moral Catastrophe" (subsection headed "A ceasefire").

٥ ـ Zvi Bar'el, "Crushing the Tahadiyeh," **Haaretz** (16 November 2008); Uri Avnery, "The Calculations behind Israel's Slaughter of Palestinians in Gaza" (2 January 2009; http://tinyurl.com/a6pzlx).

٦ ـ International Crisis Group, "Ending the War in Gaza," pp. 3, 10-11.

٧ ـ Anthony H. Cordesman, **The "Gaza War": A Strategic Analysis** (Washington, D.C.: 2 February 2009).

٨ ـ Uzi Benziman, "Until Proved Otherwise," **Haaretz** (18 June 2006). B. Michael, "Of Liars and Hunters," **Yediot Ahronot** (3 September 2005); B. Michael, "Stop the Lying!," **Yediot Ahronot** (5 September 2008).

بين أمورٍ كثيرةٍ أخرى ـ إزاء مسألة استخدامها للفوسفور الأبيض.[١] وإذ استدعى مارك غارلاسكو، المحلّلُ البارزُ السابقُ في وزارة الدفاع الأميركيّة والمحلّل العسكريّ البارز الحاليّ في هيومان رايتس واتش، سلسلةَ الأكاذيب الإسرائيليّة أثناء حرب تموز ٢٠٠٦ ضدّ لبنان ومجزرة غزّة اليوم، فقد تساءَل تساؤُلَ العارف: «كيف لأحدٍ أن يثق بالجيش الإسرائيلي؟»[٢]

إنّ مقدارًا وافرًا من «التحليل الإستراتيجيّ» [المزعوم] الذي يقدّمه كوردسمان يتضمّن إعادةَ إنتاجٍ حَرْفيّةً للبلاغات الصحفيّة اليوميّة الصادرة عن الناطقين باسم سلاح الجوّ والجيش الإسرائيليّيْن. فهو مثلاً أعاد (وبلا تعليق) إنتاجَ بيان صحافيّ إسرائيليّ في ٢٠٠٨/١٢/٣٠ يزعم أنّ إسرائيل ضَربتْ «مركبةً تَحْمل كميّةً من صواريخ الغراد،» بالرغم من أنّ تحقيقًا أجرتْه بتسالم اكتشف أنّ ذلك كان على الأرجح عبوّاتٍ من الأوكسيجين.[٣] وهو يدّعي أنّ المعلومات الإسرائيليّة الرسميّة «أكثرُ صدقيّةً بكثير» من المعطيات غير الإسرائيليّة، كمعطيات مصادر الأمم المتحدة مثلاً؛ وأحدُ أسباب ذلك أنّ «كثيرًا من الإسرائيليين يشعرون أنّ مصادر الأمم المتحدة منحازةٌ بشدّة إلى الفلسطينيين»!

ويطبّل كوردسمان ويزمّر لعناية إسرائيل الفائقة بالحدّ من الضحايا المدنيين، ومن الدمار النازل بالبنى التحتيّة المدنيّة. فهو مثلاً يؤكّد أنّ «كلّ بُعدٍ» من أبعاد الخطّة الجوّيّة الإسرائيليّة «استند إلى تحليلٍ مفصّلٍ للأهداف يقوّم تقويمًا واضحًا المخاطرَ التي تتهدّد المدنيين والمواقعَ الحسّاسةَ كالمدارس والمستشفيات والمساجد والكنائس...» لكنّ **هآرتس** تَذْكر أنّ الجيش، «بسبب انزعاج الإسرائيليّين لقبول [احتمال] وقوع خسائر إسرائيليّة كبيرة في جيش الدفاع الإسرائيليّ،» قد لجأ إلى استخدام «قوّة ناريّة كاسحة... [ذلك أنّ] أرواح جنودنا تتّخذ الأولويّة، على ما أُعْلِمَ قادةُ [القِطع العسكريّة] في التعليمات الموجَّهة إليهم.» ولقد توقّعت قيادةُ الأركان العامّة قبل حصول المجزرة أنّ «ما بين ٦٠٠ و٨٠٠ مدنيّ فلسطينيّ» سيُقْتلون.[٤] وأَخبر أحدُ قادة السرايا جنودَه قبل الهجوم ما يلي: «إننا ذاهبون إلى الحرب. أُريدُ عدوانيّةً. فإذا كان هناك شخصٌ مشبوهٌ على الطابق الأعلى في بيتٍ ما، فسنَقْصف البيتَ. وإذا كانت لدينا شكوكٌ حيال بيتٍ ما، فسنَهْدمُه. لن يكون ثمة تردُّد!»[٥] وصرّح ضابطٌ إسرائيليّ لم يَذْكر اسمَه لصحيفة **هآرتس** بما يلي: «حين نشتبه في وجود مقاتلٍ فلسطينيّ مختبئ في أحد البيوت، فإننا نقصف [البيت] بصاروخ، ثم بقذيفتَيْ دبّابة، ثم تَضْرب الجرّافةُ الحائطَ. هذا يسبّب خرابًا [بالطبع]، لكنّه يجنّب خسارةَ الأرواحِ في صفوف الجنود.»[٦]

لقد دَمّرتْ إسرائيلُ، أوْ خرّبَتْ، ١٥ ألف منزل (مخلّفةً مئةَ ألف غزّاوي بلا بيوت)، و١٦٠ مدرسةً (وسوّيتْ ستٌّ جامعاتٍ بالأرض وخُرّبتْ ١٦)، و١٥٠٠ مصنع وورشةِ عملٍ (وكثيرٌ منها حُطِّمَ أثناء انسحاب القوات الإسرائيليّة)، وعدةَ مبانٍ يقطنها إعلاميّون فلسطينيون وأجانب (قُتل ٦ صحافيين)، و٨٠٪ من المحاصيل الزراعيّة.[٧] فإذا كانت إسرائيل قد استخدمتْ أسلحةً ومعلوماتٍ «دقيقةً،» على ما يروي كوردسمان، فذلك يعني أنّ ذلك الخرابَ الهائلَ كان متعمَّدًا بشكلٍ كاسح! وفي هذا المجال خلصتْ منظمةُ العفو الدوليّة إلى أنّ إسرائيل أوقعتْ «دمارًا غيرَ مبرّر (wanton destruction) لا يُمْكن تسويغُه بأسبابٍ عسكريّة،» وهو من ثمّ جريمةُ حرب.[٨] وحقيقة الأمر أنّ ذلك الدمار كان حاسمًا وجزءًا لا يتجزّأ من عمليّة الحديد المصبوب. فهدف العمليّة، بحسب كوردسمان، كان «استعادةَ الردع الإسرائيليّ، والكشفَ أمام حزب الله وإيران وسوريا أن تحدّي إسرائيل أمرٌ بالغُ الخطورة.» غير أنّ إسرائيل لم تستطع استعادةَ قدرتها الردعيّة بإلحاق هزيمةٍ عسكريّةٍ بالمعنى الضيّق للكلمة، لأنّ حماس لم تكن ـ كما هو جليٌّ ـ قوةً عسكريّة. ولذا لم تتأتّ لإسرائيل تلك الاستعادةُ إلاّ بأنْ تُظْهرَ حجمَ التدمير الهائل الذي كانت جاهزةً وراغبةً وقادرةً على إنزاله. وبكلمات كوردسمان، فقد كان على إسرائيل «أن تَجْعل أعداءها يَشْعرون بأنها 'مجنونة' وأنّها مستعدّة لإلحاق دمارٍ «من قياسٍ لا يُمْكن التنبُّؤُ به.» ولقد أَخْبر ضابطُ أمنٍ إسرائيليٍّ

---

١ ـ Kenneth Roth, "The Incendiary IDF," Human Rights Watch (22 January 2009; http://tinyurl.com/ddchkd).

٢ ـ Amira Hass, "In the Rockets' Red Glare," **Haaretz** (15 January 2009).

٣ ـ B'Tselem, "Suspicion: Bombed Truck Carried Oxygen Tanks and not Grad Rockets" (31 December 2008; http://tinyurl.com/8scpfo).

٤ ـ Amos Harel, "What Did the IDF Think Would Happen in Gaza?," **Haaretz** (27 March 2009).

٥ ـ Amos Harel, "Testimonies on IDF Misconduct in Gaza Keep Rolling In," **Haaretz** (22 March 2009).

٦ ـ Amos Harel, "IDF Officer: It Will Take Many Years to Restore' Bomb-Wracked Gaza," **Haaretz** (7 January 2009).

٧ ـ Margaret Coker, "Gaza's Isolation Slows Rebuilding Efforts," **Wall Street Journal** (5 February 2009); United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA), **The Humanitarian Monitor** (January 2009); Ethan Bronner, "Amid the Destruction, a Return to Life in Gaza," **New York Times** (25 January 2009); United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA), "Tough Times For University Students in Gaza" (26 March 2009).

٨ ـ BBC News, "Gaza Homes Destruction 'Wanton'" (6 March 2009).

حصار غزّة حوّل حياة المدنيّين جحيمًا.

كبير سابق «المجموعة الدوليّة للأزمات» بأنّ إسرائيل، «بفضل أسطول طائراتها الحربيّة، قد قرّرتْ أن تؤدّي دورَ الكلب المسعور خدمةً للرّدع في المستقبل.» وتبجّحَ ضابطُ أمنٍ إسرائيليّ كبير أمام الفريق نفسه بأنّ إسرائيل استعادت قوّتها الردعيّة لأنّها «أظهرتْ لحماس وإيران وللمنطقة [كلّها] أنّ بمقدورها أن تكون في [مستوى] جنون أيٍّ منها.»[١]

حاول كوردسمان أن يصوِّر مجزرة غزّة وكأنّها فتحٌ عسكريٌّ حقيقيٌّ. فحدّد بتفصيلٍ مشؤوم، معزّزٍ بالجداول والأرقام والرسوم البيانيّة (وبإذنٍ من «الناطق الرسميّ لشؤون الدفاع في جيش الدفاع الإسرائيليّ»)، الترسانةَ الهائلةَ من الصواريخ والقذائف التي يُزْعم أنّ حماس صنَّعتْها وهرَّبتْها عبر الأنفاق. وذكَرَ أنّ لحماس، بحسب «مسؤولين إسرائيليين رفيعين،» ما بين ٦ إلى ١٠ آلاف مقاتل أساسيّ.» لكنّه كان عليه الإقرارُ، ولو بشكلٍ غير مباشر، بأنّ ما خاضتْه إسرائيلُ لم يكن حربًا إلاّ بشقّ النفس: فحماس كانت «لاعبًا لادولتيّاً ضعيفًا» في حين أنّ إسرائيل تمتلك ثروةً هائلةً من الأسلحة المتقدّمة.

لقد حذَّر محلّلٌ استراتيجيّ إسرائيليّ يحظى بالاعتبار من أنّه «سيكون من الخطر الشديد أن يعتقد جيشُ الدفاع الإسرائيليّ أنّه ربح حربًا حين لا تكون ثمّة حرب، ففي الحقيقة أنّه لم يتمّ خوضُ أيّ حربٍ طوال الأيّام الاثنين والعشرين من القتال!... هذه ليست حربًا. بل هي ليست مجرّدَ معركةٍ حقيقيّة.»[٢] واستذكر جنديٌّ إسرائيليّ أنّ العملية كانت تُدار بالريموت كونترول: «يبدو وكأنّ موسمَ الصيْد قد بدأ. أحيانًا يذكّرني الأمرُ بلعبة پلاي ستايشن [على الكومپيوتر].»[٣] وبحسب التقديرات الأكثر علمًا فإنّ ١٤١٧ فلسطينياً قُتل، بينهم ٢٣٦ مقاتلاً (١٧٪)، و١١٨١ غير مقاتل (٨٣٪) و٣١٣ طفلاً.[٤] وأما الخسائر الإسرائيليّة الإجماليّة فكانت ١٠ مقاتلين (أربعةٌ منهم قُتلوا بنارٍ صديقة) وثلاثةَ مدنيين. إذنْ، كانت نسبةُ القتلى الفلسطينيين إلى القتلى الإسرائيليين أكثرَ من ١٠٠ إلى واحد، وهو ما يُثْبت أنّ تلك لم تكن حربًا بل مجزرة. ويؤكّد استطلاعٌ جرى بعد شهر على انتهاء المجزرة أنّ ٦٦٪ من اليهود الإسرائيليين يؤمنون بأنّه كان ينبغي أن تستمرّ حتى تستسلمَ

١ ـ International Crisis Group, "Ending the War in Gaza," p. 19; International Crisis Group, "Gaza's Unfinished Business," p. 19.

٢ ـ Reuven Pedatzur, "The War That Wasn't," **Haaretz** (25 January 2009).

٣ ـ Harel, "What Did the IDF Think," opcit.

٤ ـ Palestinian Centre for Human Rights, "Confirmed Figures Reveal the True Extent of the Destruction Inflicted Upon the Gaza Strip," and "PCHR Contests Distortion of Gaza Strip Death Toll" (Gaza: 12 March 2009, 26 March 2009).

حماس.[1] وأسِفَ الإسرائيليون لأنّ أهداف المجزرة لم تتحقّق «لأننا لم نقتلْ بما فيه الكفاية.»[2] غير أنّ المسألة بالنسبة إلى كوردمسان لم تكن تتعلّق بما ارتكبتْه إسرائيلُ بل بأنّها لم تُدِرْ بكفاءةٍ «حربَ التصوّرات [الإدراكات]»: فهي لم تفعلْ إلاّ القليلَ «لكي تَشْرَح للعالم الخطواتِ التي اتّخذتْها للتقليل من الخسائر المدنيّة والدمار الجانبيّ،» و«كانت تستطيع ـ وكان عليها ـ أن تفعل أكثرَ بكثيرٍ لتبيِّنَ درجةَ **الانضباط** العسكريّ وأن تجعل ذلك قابلاً للتصديق.» غير أنّ حقيقة الأمر هي أنّ إسرائيل بدأت الاستعدادات لحملتها الدعائيّة قبل المجزرة بستّة شهور، وكُلِّفتْ «مديريّةُ الإعلام الوطنيّ» بتنسيق تلك الحملة.[3] وعليه، فإذا فشلت الحملةُ الإعلاميّة الإسرائيليّة البالغةُ التنسيق في الإقناع، فذلك لا يعود إلى فشل إسرائيل في إيصال رسالتها «الإنسانيّة» بما فيه الكفاية، ولا يعود إلى أنّ العالم بأسره فَشِلَ في «إدراك» ما يحدث؛ وإنّما الواقعُ هو أنّ **حجمَ المجزرة** كان من الرعب بحيث يَعْجز أيُّ قدْرٍ من البروپاغندا عن تَقْنيعه [أو إخفائِه]، ولاسيَّما بعد أن انتهت المجزرةُ ولم يعُد المراسلون الأجانب محظورين من الدخول.

لكنْ ولسوء طالع كوردسمان، فإنّ **هآرتس** ووسائلَ إعلام إسرائيليّة أخرى نشرتْ، بعد أسابيع من صدور «تحليله الإستراتيجيّ،» شهاداتٍ لقادة عسكريين إسرائيليين وجنود مشاة ارتكبوا جرائمَ حرب أو شهدوها في غزّة.[4] وقد تحدّث المقاتلون عن قتلٍ غير مبرَّر للمدنيين، وعن تدميرٍ غير مبرَّر للأملاك المدنيّة، وذلك في «مناخ كانت فيه أرواحُ المدنيين... أقلَّ أهميَّةً بكثيرٍ، بكثيرٍ، من أرواح جنودنا»: «فكلُّ واحدٍ هناك يُعتبر إرهابيّاً،» و«يُسْمَحُ لك بأنْ تفعل ما تشاء... لا لسبب إلاّ لأنّ ذلك أمرٌ لذيذ (cool).» وبمعزلٍ عن النفي الإسرائيليّ الرسميّ الذي لا يَحْمل أيّة صدقيّة ـ إذْ ما الذي قد يَدْفع الجنودَ إلى الكذب؟[5] ـ فإنّ ردّ الفعل تراوح بين الصدمة والتقليل من شأن ما حدث.[6] إنّ هذه التصرّفات كانت في الحقيقة «استكمالاً طبيعيّاً للسنوات التسع الأخيرة، حين قَتَلَ الجنودُ حوالى ٥٠٠٠ فلسطينيّ، نصفُهم على الأقلّ مدنيّون أبرياء، وألفٌ منهم تقريبًا أطفالٌ ومراهقون،» على ما لاحظ جدعون ليڤي الذي سَخِر من المزاعم الرسميّة الإسرائيليّة. والحقّ أيضًا أنّ التصرُّفَ الإجراميّ للجنود الإسرائيليّ كأفراد لم يكن إلاّ نتيجةً وحشيّةً وجزءًا لا يتجزّأ من الطبيعة الإجراميّة للمؤسّسة الإسرائيليّة نفسها، التي تهدف إلى استعادة قدرة إسرائيل الردعيّة باستخدام الأسلحة الفتّاكة الهائلة ضدّ مجتمعٍ بلا حماية. ويواصل ليڤي القولَ إنّ تلك «لم تكن حالاتٍ من النّار التائهة [عن سبيلها] بل نارٌ متعمّدةٌ ناجمةٌ عن أوامر.»[7] صحيح أنّ بعض الجنود استغلّوا مناسبةَ حصول المجزرة ليُطْلقوا العنان لنوازعهم الساديّة، غير أنّ هذه «التجاوزات» نبعتْ هي أيضًا من الطبيعة الإجرامية للمؤسّسة الحاكمة. ثم إنّه من قبيل العبث التركيز على التجاوزات الفرديّة، مثلما كان من قبيل السوريالية أن يَعْمد النازيّون ـ في خضمّ «الحلّ النهائيّ» ـ إلى مقاضاة الجنود الأفراد بسبب تصرّفاتهم الوحشيّة والساديّة. فلقد أسف النازيون، وبإخلاص، للتجاوزات لأنّها عَزّزت اللاانضباطَ العسكريّ وكانت غيرَ جديرةٍ «بالإنسان المتفوّق،»[8] بيْد أنّ أكثرَ الجرائم فظاعةً كانت تلك التي ارتُكبت **بطريقةٍ ممهنجةٍ ومنظّمة**.

ولقد عمد بعضُ المعلّقين، في سعيهم إلى إلقاء تَبِعَةِ المجزرة الغزّاويّة على الانغلاق الأصوليّ [اليهوديّ]، إلى التعلُّق بشهادات الجنود، فراحوا يقتبسون العبارات المتعصّبةَ المُلْهِبَةَ التي تفوّه بها الحاخامون العسكريّون والمجنّدون القادمون من المدارس الدينيّة. وهكذا اقترح إيثان برونر من **نيويورك تايمز** أنّ الإجرام إنّما هو عملُ «القوميّين الدينيّين الذين انتقلوا أكثرَ فأكثر إلى مواقع المسؤوليّة العسكريّة» وحلّوا مكانَ الكيبوتزيّين «العَلمانيّين والغربيّين والمتعلّمين» الذين كانوا يسيطرون ذاتَ مرّة على الجيش،[9] وكأنّ الدافعَ الإجراميَّ لعمليّة «الحديد المصبوب» لم يكن من بنات أفكار وزير الدفاع إيهود باراك وجماعته العَلمانيّين، أو كأنّ إسرائيل لم يسبقْ أن ارتكبتْ مجازرَ عدّةً قبل وقتٍ طويلٍ من دخول المتعصّبين الدينيين صفوفَها العسكريّة!

---

١ ـ "War and Peace Index-February 2009," Tami Steinmetz Center for Peace Research.

٢ ـ Gideon Levy, "Everyone Agrees: War in Gaza Was a Failure," **Haaretz** (12 March 2009).

٣ ـ Anshel Pfeffer, "Israel Claims Success in the PR War," **Jewish Chronicle** (31 December 2008); Hirsh Goodman, "Analysis: The Effective Public Diplomacy Ended with Operation Cast Lead," **Jerusalem Post** (5 February 2009).

٤ ـ Amos Harel, "IDF Killed Civilians in Gaza Under Lax Rules of Engagement," **Haaretz** (19 March 2009); Harel, "Shooting and Crying"; Harel, "Testimonies on IDF Misconduct in Gaza Keep Rolling In."

٥ ـ Amos Harel, "Analysis: Can Israel Dismiss Its Own Troops' Stories from Gaza?," **Haaretz** (19 March 2009).

٦ ـ Amira Hass, "Time to Believe Gaza War Crimes Allegations," **Haaretz** (24 March 2009).

٧ ـ Gideon Levy, "IDF Ceased Long Ago Being 'Most Moral Army in the World,'' **Haaretz** (22 March 2009).

٨ ـ Norman G. Finkelstein and Ruth Bettina Birn, A **Nation on Trial: The Goldhagen Thesis and Historical Truth** (New York: 1998), pp. 60-65.

٩ ـ Ethan Bronner, "A Religious War in Israel's Army," **New York Times** (22 March 2009).

في **وابل النّار** تحدّثتْ منظمةُ هيومان رايتس واتش (هـ. ر. و) عن «استخدام إسرائيل اللاشرعيّ للفوسفور الأبيض في غزّة.»[١] ويُستخدم هذا الفوسفورُ أساسًا من أجل التعتيم على العمليّات العسكريّة الجارية على الأرض. وتَخْلص المنظّمة إلى أنّ إسرائيل «فجّرتْ مرارًا وتكرارًا ذخائرَ فوسفوريّةً بيضاءَ في الجوّ فوق مناطقَ مأهولةٍ بالسكّان، فقَتلتْ وجَرحت المدنيين، ودَمّرتْ بنًى مدنيّةً،» وأنّ ذلك الاستعمال يدلّ على أنّ إسرائيل «ارتكبتْ جرائمَ حرب.» كما كشفتْ أنّ إسرائيل، لو أرادت أن تعتِّم على أعمال جنودها [فعلاً]، لكان يُمْكنها استخدامُ قنابلَ دخانيّةٍ (يُنتجها مصنعٌ إسرائيليّ)؛ وأنّ استعمالَها الثابتَ للفوسفور الأبيض حيث لا وجودَ للقوات الإسرائيليّة على الأرض يدلّ على أنّ الهدف لم يكن التعتيمَ بل الإحراق. وكشفتْ أيضًا أنّ جيش الدفاع واصل إطلاقَ الفوسفور الأبيض على مجمّع الأونروا في مدينة غزّة (وكان يحوي كميّاتٍ ضخمةً من موادّ الإغاثة والطِّبابة) «بالرغم من تحذيرات موظّفي الأمم المتحدة المتكرّرة من الخطر الذي سينزل بالمدنيين،» وأنّ الأمم المتّحدة كانت قبل بدء العمليّات العسكريّة قد قدّمتْ لجيش الدفاع الإسرائيليّ الإحداثيّات الخاصّة بالمدرسة التابعة للأمم المتحدة في بيت لاهيا (التي تؤوي ١٦٠٠ لاجئ) والتي قصفتْها إسرائيل! ورأت هـ. ر. و. أنه لم يكن ثمّة أيُّ مبرِّر عسكريّ في كلا الهجومين لاستخدام الفوسفور الأبيض بوصفه «معتِّمًا» لأنّ القوات الإسرائيليّة «لم تكن على الأرض في تلك المناطق،» وأنّ الولايات المتحدة هي التي صنّعتْ «كلّ قذائف الفوسفور الأبيض» التي عثرتْ عليها هـ. ر. و. في غزّة.

أما منظّمة العفو الدوليّة فأصدرتْ دراسةً مفصليّةً[٢] طالبتْ بوقف تزويد أطراف الصراع بالأسلحة، وبأن تَفْرض الأممُ المتحدة حظرًا شاملاً على الأسلحة «إلى أن لا يعود هناك خطرٌ كبيرٌ من إمكانيّة استخدام مثل هذه الأسلحة لارتكاب انتهاكاتٍ جديّةٍ للقانون الدوليّ.» وذكرت المنظّمةُ أنّ «الولايات المتحدة كانت وما تزال مزوّدَ إسرائيل الأساسَ بالأسلحة التقليديّة،» وأنّها «تقدّم تمويلاً ضخمًا كلّ سنة لإسرائيل للحصول على الأسلحة بالرغم من تشريع أمريكيٍّ يقيّد [تقديمَ] مثل هذه المساعدة للمنتهكين الفظيعين الدائمين لحقوق الإنسان،» وأنّ «تدخُّلَ إسرائيل العسكريّ في قطاع غزّة قد تزوّد، إلى حدٍّ كبير، بأسلحةٍ وذخائرَ وآليّاتٍ عسكريّة قدّمتها الولاياتُ المتحدة من مال دافعي الضرائب الأميركيين.» لكنّ إدارة أوباما، كما هو متوقّع، رفضتْ دعوةَ منظمة العفو،[٣] وتعرّضتْ المنظمةُ لهجوم أبراهام فوكسمان من الرابطة المعادية للتشهير (وهي منظّمة صهيونيّة أميركيّة) بسبب «تقريرها الخبيث والمنحاز» الذي «لا يَفْعل ما هو دون حرمان إسرائيل من حقّها في الدفاع عن النفس»![٤] ولعلّه يُمْكن التكهُّن بأنّ دعوة منظمة العفو الدوليّة إلى حظر الأسلحة تَعْكس نفورًا أوسعَ حيال مجزرة غزّة في صفوف المجتمع الدوليّ، ليس أقلّه لدى الأميركيين اليهود الليبراليين.

أن تنتشرَ المعارضةُ الفعّالةُ للسياسة الإسرائيليّة في ما يتعدّى الكتلةَ الأساسيّةَ للعرب / المسلمين، في حين تقلّص تأييدُ إسرائيل إلى جزءٍ من الكتلة اليهوديّة وحدها، فذلك دليلٌ كاشفٌ على مسار الأمور في المستقبل.

الحرب اليهوديّة الأخيرة؟

وإذ اشتعلتْ إسرائيلُ بنار الحقد، واستأسدتْ بشعور «التفوّق الأخلاقيّ» على الآخرين، ووثِقتْ بقدرتها على ضبط الرأي العامّ أو تخويفِه، فقد واصلتْ حربَها على غزّة وكأنّها تستطيع أن تُفْلتَ من الجريمة الجماعيّة التي ارتكبتْها في وضح النهار. والحقّ أنّ الدعم الرسميّ الغربيّ لإسرائيل بقي ثابتًا، لكنّ المجزرة أطلقتْ موجةً غيرَ مسبوقةٍ من الغيظ الشعبيّ.[٥] وسواءٌ أكان السبب يعود إلى أنّ الهجوم جاء في أعقاب الدمار الذي أنزلتْه إسرائيلُ على لبنان عام ٢٠٠٦، أمْ بسبب اضطهادها القاسي لشعب غزّة، فإنّ مجزرة غزّة بدت وكأنّها تؤشّر إلى نقطةِ تحوّلٍ في الرأي العامّ تُذكّر بردّة الفعل العالميّة على مجزرة شارپڤيل في جنوب أفريقيا الأپارتهايديّة عامَ ١٩٦٠. صحيحٌ أنّ المنظّماتِ اليهوديّة الرسميّة في الشتات ذاتَ العلاقات المديدة بإسرائيل مَحضتْ هذه الأخيرةَ دعمًا أعمى كما كان متوقّعًا، إلا أنّ منظّماتٍ يهوديّة تشكّلتْ حديثًا أبعدتْ نفسَها عن إسرائيل بهذه الدرجة أو تلك.

علاوةً على ذلك فإنّ التظاهرات المعادية للحرب على غزّة في معظم الدول الغربيّة لم تكن متجانسةً إثنيّاً، في حين كانت التظاهراتُ «المؤيِّدةُ» لإسرائيل مشكّلةً تقريبًا من اليهود حصرًا. وأن تنتشرَ المعارضةُ الفعّالةُ للسياسة الإسرائيليّة في ما يتعدّى ـ داخل الجامعات مثلاً ـ الكتلةَ الأساسيّةَ للعرب/المسلمين لتطاول الوسطَ [الواسعَ]، في حين تقلّصَ تأييدُ إسرائيل إلى

---

١ ـ Human Rights Watch, **Rain of Fire: Israel's Unlawful Use of White Phosphorus in Gaza** (New York: March 2009).

٢ ـ London, 23 February 2009.

٣ ـ Gideon Levy, "Twilight Zone: Waiting for the All Clear," **Haaretz** (30 April 2009).

٤ ـ Glenn Greenwald, "Tom Friedman Offers a Perfect Definition of 'Terrorism'" January 2009; http://tinyurl.com/axu88g).

٥ ـ Andrew England and Vita Bekker, "Criticism of Israel's Conduct Mounts," **Financial Times** (10 January 2009).

جزءٍ من الكتلة اليهوديّة وحدها، فذلك دليلٌ كاشفٌ على مسار الأمور في المستقبل.

فبالرغم من حملة البروپاغندا الإسرائيليّة البالغة التنسيق، والانحياز «المؤيِّد» لإسرائيل في التغطية التي قامت بها وسائلُ الإعلام السائدة ولاسيّما في الأيّام القليلة الأولى من الحرب على غزّة،[١] وبالرغم من دعم الحكومات الغربيّة للهجوم الإسرائيليّ، فإنّ الاحتجاجاتِ الشعبيّةَ الهائلةَ على امتداد أوروبا الغربيّة (في إسبانيا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا) قَزّمت التظاهراتِ المؤيّدةَ لإسرائيل.[٢] فقد اكتسحتْ موجةٌ من الاحتجاجات الجامعاتِ البريطانيّةَ، بما في ذلك جامعات أوكسفورد وكامبردج ومانشستر وبيرمنغام ومدرسة لندن للاقتصاد ومدرسة الدراسات الشرقيّة الآسيويّة ووارويك وكِنْغ وساسِكْس وكارديف. وفي المعاقل التقليديّة لإسرائيل نفسها، مثل كندا، أعرب قسمٌ كبيرٌ من الرأي العامّ عن عدم قبوله بالهجوم على غزّة، وأيّد الاتحادُ الكنديُّ للموظّفين العموميين اقتراحًا يدعو إلى مقاطعة إسرائيل أكاديميّاً.[٣] كما دعت مجموعةٌ مؤلفةٌ من ١٦ شخصًا من أكثر المحقّقين والقضاة العالميين تجربةً إلى «تحقيقٍ دوليّ في الانتهاكات الشنيعة لقوانين الحرب، والتي ارتكبها كُلٌّ أطراف الصراع في غزّة.»[٤]

سَجّل مؤيّدو إسرائيل الغضبَ الواسعَ على مجزرة غزّة في خانة «العداء للساميّة» كما كان متوقّعًا.[٥] هكذا أعلن أبراهام فوكسمان من «الرابطة المعادية للتشهير» أنّ اليهود يواجهون «جائحةً من العداء للساميّة... هي الأسوأ، والأشدُّ، والأكثرُ كونيّةً في معظم ذكرياتنا الأخيرة.»[٦] وقال شاهدٌ إسرائيليٌّ إنّ على اليهود الملتزمين في أوروبا «أن يَبْقوا وراء الأقفال والقضبان... ففي أثناء رحلتي رأيتُ بأمِّ عيْنيَّ الوجودَ اليهوديَّ البائسَ!»[٧] غير أنّ وصف ذلك الغضب الشعبيّ الواسع على المجزرة بأنّه «معاداةٌ للساميّة» بدا في أشدّ حالاته نفيًا للمنطق، إنْ نحن أخذنا في الاعتبار المعارضة **اليهوديّة** المنتشرةَ والجهيرة.

فإذ تهيّأتْ إسرائيلُ لشنّ هجومها البرّيّ، عَبّرتْ مجموعةٌ من أكثر يهود بريطانيا تميُّزًا، ممّن يصفون أنفسَهم بأنّهم «مؤيّدون عميقون ومتحمّسون» لإسرائيل، عن «الهول» إزاء «الخسارة المتنامية في الأرواح من كلا الجانبيْن،» وناشدتْ إسرائيلَ وقفَ عملياتها العسكريّة في غزّة فورًا. وفي ملاحظةٍ أشدَّ فظاظةً، أعلن النائبُ البريطانيّ واليهوديّ الملتزم جيرالد كاوفمان، أثناءَ سجالٍ في مجلس العموم البريطانيّ حول غزّة، ما يلي: «كانت جدّتي مريضةً في السرير حين جاء النازيّون إلى بلدتها ستاثرو، فأطلق عليها جنديٌّ ألمانيّ النارَ، فقتلها في سريرها. إنّ جدّتي لم تَمُتْ لتقدِّمَ غطاءً لجنودٍ إسرائيليين يَقْتلون جدّاتٍ فلسطينيّاتٍ في غزّة!» ومضى كاوفمان ليَدينَ الحكومةَ الإسرائيليّةَ بسبب «استغلالها، دونما رحمةٍ، وبكلبيّةٍ، للشعور المتواصلِ بالنَّدم لدى الأغيار جرّاء قتلهم اليهودَ في الهولوكوست [المحرقة]، وذلك لكي تبرِّر [الحكومةُ] قتلَها للفلسطينيين.»[٨] وفي فرنسا دعا الكاتبُ اليهوديُّ ذو الشعبيّة الكبيرة جان ـ موييس برايتبرغ الرئيسَ الإسرائيليَّ إلى إزالة اسم جدّه عن النّصب التذكاريّ في متحف يادڤاشِمْ المكرّس لذكرى ضحايا الهولوكوست النازيّة «لكي لا يُستخدمَ بعد اليوم لتبرير الرعب النازل بالفلسطينيّين.»[٩] وفي ألمانيا أصْدر الجناحُ الألمانيُّ من مجموعة «يهود أوروبيون من أجل سلامٍ عادل» بيانًا بعنوان «الألمانُ اليهودُ يقولون لا لأعمال القتل التي ينفّذها الجيشُ الإسرائيليّ.»[١٠] وفي كندا ناشدتْ ثماني يهوديّات احتلّلْنَ القنصليّةَ الإسرائيليّة «كلَّ اليهود الجَهْرَ ضدّ المجزرة.» كما أعلن عازفُ البيانو الكنديُّ الشهيرُ أنطون

---

١ ـ Rachel Shabi, "Special Spin Body Gets Media on Message, Says Israel," **Guardian** (2 January 2009).

٢ ـ Ben Quinn and Matthew Weaver, "Tens of Thousands in London Protest Gaza Offensive," **Guardian** (3 January 2009); "Cities across the World Become Platform for Hundreds of Thousands of Protesters Against Gaza Fighting," **Daily Mail** (11 January 2009); "Tens of Thousands Demonstrate For and Against Israel," **Der Spiegel** (13 January 2009).

٣ ـ "Two-In-Five Canadians Criticize Israel's Military Actions in Gaza," **AngusReid Strategies** (22 January 2009; http://tinyurl.com/c9egko); Adrian Morrow, "CUPE Union Votes for Academic Boycott of Israel," **Toronto Star** (22 February, 2009).

٤ ـ Amnesty International, "Gaza: World's Leading Investigators Call for War Crimes Inquiry" (16 March 2009).

٥ ـ Yael Branovsky, "Report: Gaza War Eeverses Drop in Anti-Semitism," **Haaretz** (15 January 2009); "Europe Fears Spike in Anti-Semitism over Gaza," ynetnews.com (7 January 2009; http://tinyurl.com/dcd7oq).

٦ ـ "ADL Leader: Gaza War Unleashed Pandemic of Anti-Semitism," press release (12 February 2009; http://tinyurl.com/c9vc9m).

٧ ـ Guy Bechor, "Can Jews Live in Europe?," ynetnews.com (6 March 2009; http://tinyurl.com/dbzypr).

٨ ـ http://tinyurl.com/bh4k4s.

٩ ـ Jean-Moïse Braitberg, "Effacez le nom de mon grand-père à Yad Vashem" (Open Letter to the President of Israel), **Le Monde** (29 January 2009).

١٠ ـ Ali Fathollah-Nejad, "German Media Censorship on Gaza?," **Global Research** (22 January 2009).

استخدام إسرائيل للفوسفور الأبيض حيث لا وجودَ لقواتها على الأرض يدلّ على أنّ الهدف ليس «التعتيم» بل الإحراق.

كويرتي أنّ «جرائمَ الحرب الإسرائيليّة التي لا تصدَّق في غزّة... تجعلني أخجل من كوني يهودياً.»[١] وفي أستراليا وقّع روائيّان من حائزي الجوائز، ووزيرٌ سابقٌ، بيانًا لعددٍ من اليهود يدين «الهجومَ اللامتكافئَ إلى حدٍّ شنيع.»[٢]

وفي الولايات المتحدة، وبالرغم من تدفُّقات الحقد من أفواه النُّخَب، فقد بيّنت استطلاعاتُ الرأي العامّ أنّ حوالى ٤٠٪ فقط من الأميركيين وافقوا على الهجوم الإسرائيليّ، وإن انتقدوا بقسوةٍ حركةَ حماس؛ وأنّ تلك الموافقة انخفضتْ إلى ٣٠٪ في صفوف المصوّتين للحزب الديمقراطيّ (وهو الحزب الذي يؤيِّده معظمُ اليهود).[٣] وفي ارتدادٍ يستدعي إلى الأذهان ارتدادَ جيمي كارتر، مؤلِّف كتاب **فلسطين: سلْم لا أپارتهايد**، وَبَّخ الأيقونةُ الليبراليّةُ بيل موير‌ز إسرائيلَ في برنامجه الشعبيّ، «جورنال،» وإنْ في سياقٍ يَشْمل حماسَ أيضًا، قائلاً: «إنّ إسرائيل، بقتلها العشوائيّ للعُجَّز والأولاد ولعائلاتٍ بأكملها، وبتدميرها المدارسَ والمستشفيات، قد فَعلتْ تمامًا ما يفعله الإرهابيّون.»

ومع تكشُّف مجزرة غزّة، واستحالةِ تجاهل الصور الصادمة التي تبثّها قناةُ الجزيرة مباشرةً، بدأت التصدُّعاتُ في التيّار السائد بالظهور. فتحتَ العنوان المشؤوم «هل الوقت ينفد أمام حلّ الدولتين،» بثّ برنامج «٦٠ دقيقة» الإخباريّ الأشهرُ في الولايات المتحدة مقطعًا رهيبًا عن المستوطنين اليهود في الضفّة الغربيّة، وتضمّن أيضًا مشهدًا معذِّبًا عن «عربٍ يَخْضعون للاحتلال في منازلهم بالذات» على يد جنود إسرائيليين.[٤] ونشرتْ صفحةُ الرأي اليمينيّة في **وول ستريت جورنال** قطعةً لأستاذ القانون جورج إ. بشارة بعنوان «إسرائيل ترتكب جرائمَ حرب.»[٥] وأقرّ روجر كوهن، كاتبُ الأعمدة الرصين عادةً في **نيويورك تايمز**، في مقالتيْن بـ «الخجل من أعمال إسرائيل.» وفي المقال الثاني تكهَّن بأنّ «استمرارَ إسرائيل في

١ ـ Emily Mathieu, "Jewish Women Arrested in Toronto Consulate Protest," **Toronto Star** (8 January 2009); Tom Godfrey, "Security Alert for Jewish Community," **Toronto Sun** (8 January 2009).

٢ ـ Andrew West and Jonathan Pearlman, "Australian Jews Protest Against Israel's Action," **Sydney Morning Herald** (6 January 2009).

٣ ـ "Americans Closely Divided Over Israel's Gaza Attacks," **Rasmussen Reports** (31 December 2008); "Modest Backing for Israel in Gaza Crisis," **Pew Research Center** (13 January 2009).

٤ ـ Sixty Minutes, "Time Running Out for a Two-State Solution?" (25 January 2009; http://tinyurl.com/avpjr8).

٥ ـ George E. Bisharat, "Israel is Committing War Crimes," **Wall Street Journal** (10 January 2009).

توسيع المستوطنات، وحصار غزّة، وبناءِ الجدار، واللجوءِ غير المبرَّر إلى القوة العالية التقنيّة، قد صُمِّم تحديدًا من أجل إكراه الشعب الفلسطينيّ وتقويضِه وإذلالِه حتى تتبخَّر أحلامُه في الدولة والكرامة.»[١] ورأى آندرو ساليڤان، المحرِّرُ السابقُ لمجلة **نيوريپبليك** والمدوِّنُ المؤثِّر، أنّ الهجوم الإسرائيليّ كان «حربًا من جانب واحد إلى حدٍّ بالغ،» ونَعَتَ بـ «السفّاحين» اليهودَ اليمينيين المؤيِّدين لـ «هذه المذبحة البشريّة الرهيبة التي ترتكبها إسرائيل (ويَدْفع ثَمَنها، جزئيًا، الأميركيّون).»[٢] وصرّح فيليپ سلايتر أنّ «قطاع غزّة ليس أكثرَ من معسكر اعتقالٍ إسرائيليّ كبير؛ حيث يُهاجَم الفلسطينيون ساعةَ يشاء [الإسرائيليون]، ويجوَّعون حتى الموت، ويُحْرمون من الوقود والطاقة، بل من التجهيزات الاستشفائيّة... سيكون صعبًا أن يحظى [الفلسطينيون] بأيّ احترام إنْ لم يردّوا ببضعة صواريخ!»[٣] وفي هذه الأثناء تبنّى مجلسُ المدينة في كايمبردج (ولاية ماساتشوستس) قرارًا «يدين الاعتداءاتِ على غزّة واجتياحَها من قِبل الجيش الإسرائيليّ والاعتداءات الصاروخيّة على شعب إسرائيل.»[٤] كما أَطلقتْ مجموعةٌ من الأساتذة الجامعيّين الأميركيين حملةً على مستوى الولايات المتحدة تدعو إلى مقاطعة إسرائيل أكاديميًا وثقافيًا.[٥]

هذا وقد كَشَفَ أحدُ الاستطلاعات عن اليهود الأميركيين أنّ ٤٧٪ منهم يؤيِّدون الهجومَ الإسرائيليّ بقوّة، في حين أنّ ٥٣٪ كانوا إمّا ملْتبسي الموقف أو معارضين بقوّة.[٦] ولقد أشار مراقبون مرهَفون من الجالية اليهوديّة الأميركيّة إلى «بحرٍ من التغيير ما بعد غزّة.» ولاحظ م. ج. روزنبرغ أنّه «باستثناء القسم الأكثر محافظةً في الجالية المؤيِّدة لإسرائيل، ليس ثمّة إلاّ دعمٌ قليلٌ للحرب [على غزّة]. وفي نيويورك، وهي مدينةٌ خرجتْ فيها سابقًا مسيراتُ تأييد [لإسرائيل] تقدَّر بـ ٢٥٠ ألف شخص، لم يَسِرْ مؤخّرًا في التظاهرة [المؤيِّدةِ لإسرائيل] في مانهاتن في يوم أحدٍ مشْمسٍ سوى ٨٠٠٠ شخص!»[٧] كما وزّعتْ مجموعة «يهودٌ أميركيّون من أجل سلام عادل» عريضةً تدعو «الجنودَ الإسرائيليّين إلى وقف جرائمَ الحرب.» وتظاهرتْ مجموعة «يهودٌ يقولون لا!» أمام مكاتب المنظّمة الصهيونيّة العالميّة والوكالة اليهوديّة. كما أَسقطتْ مجموعة «يهود ضدّ الاحتلال» يافطةً فوق الطريق السريع الغربيّ لمدينة نيويورك كُتِب عليها «اليهودُ يقولون: أَنهُوا حربَ إسرائيل على غزّة الآن!»[٨]

ثم إنّ قطاعًا مؤثِّرًا من المثقفين العموميّين اليهود لم يبقَ صامتًا: إنّه الجيلُ الجديدُ من المدوِّنين اليهود الليبراليين، والمساهمين الدوريّين في المواقع الإلكترونيّة الليبراليّة ـ الديمقراطيّة مثل Salon.com وThe Huffington Post. والحقّ أنّ رمزيّة هذا الأمر لا ينبغي إغفالُها: ففي حين تسلّق مؤيِّدو إسرائيل المتحمّسون (أمثال آلان ديرشوويتز وپيريتز ومايكل والتزر)، حين كانوا في شبابهم، القاربَ الصهيونيّ، ها هم المثقّفون اليهود الشباب الذين صَنعوا أسماءهم على الإنترنت يقفزون من ذلك القارب.[٩] وهكذا نشر إزرا كلاين (٢٥ سنة، وهو مدوِّنٌ في American Prospect) في اليوم الثاني من المجزرة «أنّ الهجمات الصاروخيّة [الفلسطينيّة] مقلقةٌ جدًا للإسرائيليين بلا شكّ؛ ولكنّ الأمر ينطبق أيضًا على الحواجز [الإسرائيليّة]، وإغلاقِ الطرق، والحركةِ المقيَّدة... وعلى القتلى الفلسطينيين الثلاثمئة أن يُقْلقونا جميعًا.»[١٠] وكَتبتْ دانا غولدشتاين (٢٤ سنة، مدوِّنة على American Prospect) في اليوم الثاني عشر للمجزرة: «أودّ أن أصدِّق أنّ التجربة الجماعيّة التاريخيّة لليهوديّة والصهيونيّة تؤدّي إلى شيءٍ أفضل ـ شيءٍ أكثرَ إنسانيّةً ـ ممّا شهدناه في الشرق الأوسط هذا الأسبوعَ الماضي.»[١١] وفي اليوم الثالث عشر للمجزرة نشر غلَنْ غرينوالد (٤٢ سنة، مدوِّن في Salom.com) ما يلي: «ليست هذه حربًا بقدر ما هي، بالكامل، مجزرةٌ من طرفٍ واحد.» وفي ٢٠٠٩/١/٣٠ كتب: «ليس ممكنًا إنجازُ تقدّم حقيقي [في مجال] استعادة الدستور [الأميركيّ] وعَكْسِ [أو قَلْبِ] توسُّعاتنا العسكريّة

---

١ ـ Roger Cohen, "The Dominion of the Dead," "Middle East Reality Check," **New York Times** (8 January 2009, 9 March 2009).

٢ ـ Andrew Sullivan, "Aliens" (4 January 2009; www.andrewsullivan.theatlantic.com/the_daily_dish/2009/01/aliens.html); Andrew Sullivan, "Proportionality and Terror" (5 January 2009; www.andrewsullivan.theatlantic.com/the_daily_dish/2009/01/a-question-of-p.html).

٣ ـ Philip Slater, "A Message to Israel: Time to Stop Playing the Victim Role" (7 January 2009; http://tinyurl.com/7tve6p).

٤ ـ City Council, "Policy Order Resolution" (12 January 2009; http://tinyurl.com/cy557y).

٥ ـ Raphael Ahren, "For First Time, U.S. Professors Call for Academic and Cultural Boycott of Israel," **Haaretz** (29 January 2009).

٦ ـ **J Street National Survey of American Jews**, 28 February-March 2009; http://tinyurl.com/d6hayn.

٧ ـ M.J. Rosenberg, "Post-Gaza Sea Change," **Israel Policy Forum** (30 January 2009); "D.C. Rally for Israel Attracts 1,000," **Jewish Telegraphic Agency** (7 January 2009).

٨ ـ American Jews for a Just Peace, "Open Letter to Israeli Soldiers from Jews around the World" (4 January 2009; http://tinyurl.com/7lcrdw); http://tinyurl.com/cdxzb9; http://tinyurl.com/ca3qtf.

٩ ـ Jeet Heer, "Israel Struggles with Youth Wing of the Diaspora," **National Post** (9 January 2009).

١٠ ـ Ezra Klein, "Israel, Wrong" (28 December 2008; http://tinyurl.com/77de9e).

١١ ـ Dana Goldstein, "The Idea of Israel" (7 January 2009; http://tinyurl.com/cdgb92).

والمخابراتيّة إنْ نحن عَمَدْنا ـ في الوقت نفسه ـ إلى تعزيز حروب إسرائيل المختلفة ودعمها دعمًا أعمى (ومن ثمّ جرِّ أنفسِنا إلى تلك الحروب).» وفي ٢٠٠٩/٢/٢٠ ردّ غرينوالد على هجوم افترائيّ شنَّه أحدُ أصحاب التفكير الحزبيّ [الضيّق]، واسمُه جيفري غولدبرغ، فقال: «إنّ أشخاصًا مثل جيفري غولدبرغ... قد أساؤوا استخدامَ الاتهامات بـ 'معاداة الساميّة' و'معاداة إسرائيل'، واستهلكوها بإفراط، وتلاعبوا بها، واستغلّوها، في سبيل تحقيق أهدافٍ خاطئةٍ وسياسيّةٍ بشكلٍ عارٍ إلى حدٍّ أنّ تلك المصطلحات أُفقدتْ معانيها، وأضاعت وَخْزَتَها تمامًا تقريبًا، وسُخِّفتْ إلى حدود الكاريكاتور...»

«أودّ أن أصدِّق أنّ التجربة الجماعيّة التاريخيّة لليهوديّة والصهيونيّة تؤدّي إلى شيءٍ أفضل ـ شيءٍ أكثرَ إنسانيّةً ـ ممّا شهدناه في الشرق الأوسط هذا الأسبوعَ الماضي.»

(دانا غولدشتاين)

وخلص غرينوالد إلى القول:

«ثمّة بحرٌ من التغيير في ما يتعلّق بالسجالات الدائرة حول السياسة الأميركيّة تجاه إسرائيل. فهُم [مؤيّدو إسرائيل] لم يعودوا يَمْلكون القدرةَ على كبح المعارضة من خلال تكتيكات التخويف العِصَاباتيّ [الزَّعْرانيّ]. وهم يَعْلمون ذلك، ولهذا لم يعد في مقدورهم أن يفعلوا شيئًا سوى رفع عقيرتهم بالشتائم. لقد كانت مشاهدةُ التدمير الإسرائيليّ لغزّة ولسكّانها المدنيّين المحاصَرين بلا حماية ـ وذلك باستخدام القنابل الأميركيّة والأسلحة الأميركيّة والأموال الأميركيّة والغطاء الدبلوماسيّ الأميركيّ ـ من الوحشيّةِ والترويع بحيث غَيّرتْ بشكلٍ محتومٍ كيفيّةَ رؤية الناس إلى الصراع في الشرق الأوسط.»[١]

على أنّ التغيّر الصارخ بين مواقف الأجيال حيال إسرائيل بلغ أعلى درجات وضوحه في الجامعات الأميركيّة. وفي هذا الصدد كتبتْ **Inside Higher Ed** «أنّ تحوّلاً باتّجاه مشاعر أكثر بروزًا في تأييدها للفلسطينيين، أو عدائها لإسرائيل، كان وما يزال عميقًا في بعض الجامعات، بتأثيرٍ جزئيّ من حرب غزّة في الشتاء.»[٢] واكتظّت القاعاتُ الكبرى لسماع محاضراتٍ تَستنكر مجزرةَ غزّة. وفي حين كانت المجموعاتُ «المؤيّدة» لإسرائيل تحتجّ داخل هذه المحاضرات أو خارجها، فإنّها اليومَ تكاد لا تَظْهر قطّ. وطلاّبُ جامعة كورنِلّ اصطفّوا حاملين ١٣٠٠ علم أسود إحياءً لذكرى قتلى غزّة. ونظّم الطلاّبُ في جامعة روتشستر، وجامعة ماساتشوستش، وجامعة نيويورك، وجامعة كولومبيا، وهاڤرفور كولدج، وبرِن ماوِرْ كولدج، وهامشِرْ كولدج، حملاتٍ من العرائض والاحتجاجات والاعتصامات تطالب بالدعم الماديّ للطلاّب الفلسطينيين، وبسحب الاستثمارات من شركات الأسلحة والشركات التي تتعامل مع المستوطنات اليهوديّة اللاشرعيّة. (وقد نجح طلاّب هامشرْ كولدج بالضغط على مجلس الأمناء لسحب استثمار الكليّة في الشركات الأميركيّة التي تستفيد مباشرةً من الاحتلال الإسرائيليّ). وفي جامعاتٍ كثيرةٍ أدّى الطلبةُ اليهود دورًا قياديًا في لجان «طلاّب من أجل العدالة في فلسطين.» كما أنّ ناشطين يهودًا مبدعين ومتفانين في منظّمات مثل «فوضويّون ضدّ الجدار،» إلى جانب أفراد مثل آنا بالتزر (مؤلِّفة مذكّراتٍ بعنوان **شاهدة في فلسطين**[٣]) وآدم شاپيرو (أحد مؤسّسي «حركة التضامن العالميّة» ISM)، راحوا يتنقّلون من مدرسة إلى مدرسة عارضين شهاداتهم الشخصيّة حول الفظائع اليوميّة الجارية في فلسطين. والحقّ أنّ أربطة التضامن التي نُسِجتْ بين الشباب اليهود والمسلمين المعادين للاحتلال الإسرائيلي تُعطي سببًا للأمل في إمكانيّة تحقيق سلامٍ عادلٍ ودائم.

❖ ❖ ❖

بعد أن انتهيتُ من الحديث عن مجزرة غزّة في إحدى الجامعات الأميركيّة، قَدّم إليَّ أحدُهم زرّاً صنَعَه رعاةُ النشاط، وكُتب عليه «I Love Gaza» (أنا أحبّ غزّة). ثبّتُّ الزِّرَّ على حقيبة ظهري وتوجّهتُ إلى المطار. وفي ما كنتُ واقفًا في الصفّ بانتظار الإقلاع، همَس مسافرٌ خلفي في أذني: «أحبُّ زرَّكَ.» هممممم، فكّرتُ، «إنّ الزمن يتغيَّر.»[٤] بعد ساعات طلبتُ إلى مضيف الطائرة كوبَ ماء. وإذ أعطاني الكوبَ، انحنى فوقي وهمس: «أُحبُّ زرّكَ.» هممممم، فكّرتُ، «شيءٌ ما يحدث ههنا!»[٥]

الولايات المتحدة

---

١ ـ Glenn Greenwald, "Both Parties Cheerlead Still More Loudly for Israel's War" (8 January 2009; http://tinyurl.com/7a2ky8); Glenn Greenwald, "Increasing Evenhandedness in the Middle East" (30 January 2009; http://tinyurl.com/cljyjn); Glenn Greenwald, "Jeffrey Goldberg's Gasping, Dying Smear Tactics" (20 February 2009; http://tinyurl.com/bpljck).

٢ ـ Elizabeth Redden, "On Israel, Shifted Ground," **Inside Higher Ed** (6 March 2009; http://tinyurl.com/ag8t8r). Samuel Freedman, "In the Diaspora: Suspended agitation," **Jerusalem Post** (19 March 2009).

٣ ـ Anna Baltzer, **Witness in Palestine: A Jewish American Woman in the Occupied Territories** (Boulder, CO: 2007).

٤ ـ من أغنية لبوب ديلان ضدّ حرب ڤيتنام في الستينيّات عنوانُها The Times They are A-Changing. (المترجم)

٥ ـ من أغنية لفرقة بافالو سپرنغفيلد، وذلك أيضًا في سياق حركة معاداة الحرب على ڤيتنام. (المترجم)